أرنولد توينبي

فلسطين

جريمة ... ودفاع

الطبعة الثالثة

تعريب

عمر الديراوي

أرنولد توينبي

فلسطين

في الميزان

جريمة... ودفاع

تعريب

عمر الديراوي

دار العلم للملايين

ص.ب: ١٠٨٥ - بيروت

تلكس: ٢٣١٦٦ - ليبان

الطبعة الثالثة

كانون الثاني (يناير) ١٩٨١

كلمة الناشر

لقد حفزتنا إلى تعريب ونشر هذا الكتاب الظروف الصعبة الحالية التي تمر بها قضية عرب فلسطين النازحين ، وما نلمحه في الافق من محاولات لحل القضية الفلسطينية بشكل لا يضمن مصالح امتنا العربية ومصالح شعب فلسطين نفسه .

وقد احببنا ، كدأبنا في خدمة أبناء الأمة العربية ، أن يطلع القارىء العربي على رأي اقامت اسرائيل الدنيا ضده واقعدتها .

إنه رأي كبير مؤرخي العالم ، الفيلسوف البريطاني « ارنولد توينبي » .

وقد ولد ارنولد جوزيف توينبي عام ١٨٨٩ ، وكان مبعوث بريطانيا في مصاعدة صلح باريس سنة ١٩١٩ ، ثم ظل يحاضر في التاريخ الاغريقي وتاريخ الرومان ، في جامعة لندن من سنة ١٩١٩ حتى سنة ١٩٢٤ . وهو يشغل كرسي التاريخ الدولي في جامعة لندن منذ سنة ١٩٢٥ . وله مؤلفات كثيرة ليس اقلها كتابه « دراسة في تاريخ العالم » .

وليس يعني هذا موافقة منا على رأيه . فاننا نختلف معه في تحميل المسؤولية المترتبة على تلك الجريمة ، وبدرجات متفاوتة ، للدول التي اشتركت في اخراج تلك المأساة على مسرح التاريخ .

ولكننا ، ايمانا بأن العلم وحده هو ما ننشده ، وان واجبنا الوطني يقضي ان نطلع ابناء امتنا على مختلف الآراء المتعلقة بالموضوع ، رأينا ان تكون الترجمة حرفية ، مع ابداء بعض التعليقات التفسيرية فقط .

لقد دافع « توينبي » عن رايه في قضية فلسطين ضد السفير الاسرائيلي في كندا ، وحاولت الهيئات الصهيونية المسيطرة على وسائل النشر في الولايات المتحدة الاميركية ان تحارب الرجل . ولكن هذه المحاولة لم تمنع من ان تخلق صدى بعيد الأثر لرأي ذلك الفيلسوف ..

وقد اطلقت الجمهورية العربية المتحدة سراح الاسير البريطاني الجاسوس « جيمس زارب » تقديراً منها لموقف توينبي هذا .

إن « توينبي » يحتم فناء دولة اسرائيل لاسباب يذكرها هو ، ونحن نشاركه حتمية فنائها ، ولكن لاسباب اخرى ، وبوسائل مختلفة .. واخيراً يقول : « ان جرائم النازية ضد اليهود ، اقل انحطاطاً إلى الدرك الاسفل من جرائم ضحايا اليهود ضد الأبرياء العرب » .

لقد كانت الجريمة .. ولا زالت قائمة .. وثمة من يحاول تبرئة المجرم .. ولكن عدالة قضيتنا ستنتصر ، وسيكون انتصارها قريباً . وحينئذٍ يعود الحق إلى اصحابه ، وتزول جريمة « اسرائيل » وآثارها.

الناشر

مصير اليهود الاوروبيين وعرب فلسطين

إن الفزع الرهيب الذي يتصف به هذا الفصل من مأساة تطور القضية اليهودية عبر التاريخ يرجع في اصله إلى عاملين :

الأول : هو ذلك اللؤم الذي لم يسبق له مثيل من جناة الشر ،

والثاني : تلك الآلام المحزنة ، والعناء المرير الذي قاساه كل من الضحايا اليهود ، والعرب الابرياء ، كطائفة ثالثة في الموضوع.

ويرى المسيحيون « الاوروبيون » ان الاضطهاد الذي انزله الالمان بيهود أوروبا الوسطى في سنوات ما بين ١٩٣٣ — ١٩٤٥ يهز المشاعر أكثر بكثير من الاضطهـــاد الذي نزل بهم على يـــد الاسبانيين والبرتغاليين في شبه جزيرة ايبريا اثناء القرنين الرابع عشر والخامس عشر للميلاد . ومع أن كلا الاضطهادين قد برز نتيجة لدوافع اقتصادية محضة ، تلبست بمظهر المثاليـــة فخففه ذلك من سمعتها السيئة ، فإن اعتراف مسيحيي شبه جزيرة ايبريا القروسطيين بالحمـــاس لدينهم لم يكن غير بعيد عن الصـــدق والاخلاص بالقدر الذي كان فيه اعتراف الوثنيين الألمان الجـــدد بحماسهم لعبادة صنمية قبليتهم .

وقد بدأ ذلك من حقيقة ان الاسبانيين والبرتغاليين منحوا الحرية فعلاً لمن وافق على تطبيق نظم المسيحية الغربية من اليهود ،

في حين ان الاشتراكيين والوطنيين الالمان ، وقبليتهم العرقية ، لم يدعوا مجالاً لأي يهودي ان يكون في موقف غير «اللا آري» Non-Aryan .

وهو الموقف الذي وضعته فيه الطبيعة ذاتها .

ومن ناحية اخرى ، فقد كان مسيحيو ايبريا القروسطيون لا يفعلون اكثر من انهم يمارسون دينهم التقليدي حسب مفهومهم لتعاليمه . وكان ذلك المفهوم غامضاً تلفه حجب الظلام . هذا في حين ان النازيين الالمان ، وهم ابناء التاريخ الحديث ، قد رفضوا الطابع الانساني في ذلك الدين عن قصد وتصميم ، مع انه هو الحسنة الرئيسية في التقدم الاخلاقي الذي شهده التاريخ أثناء فترة الاستنارة الغربية التي عقبت سيادة المسيحية في أوروبا .

والحق ، ان معيار الحطاط النازية الأكبر لا تتجلى صورته في قوائم الاحصاء المجردة ، مهما بدت تلك القوائم واضحة بيّنة ، مع انها تشهد بأن النازيين قد أنقصوا عدد يهود أوروبا الوسطى الواقعة إلى الغرب من الاتحاد السوفياتي خلال فترة لا تزيد عن ١٢ سنة من ستة ملايين ونصف مليون انسان إلى مليون ونصف[1]

---

(١) كان من غير الممكن اعطاء أرقام دقيقة مبنية على الاحصاءات المضبوطة سنة ١٩٥٢ ، وكان يبدو انه من غير المحتمل العثور على معلومات كافية في المستقبل . اما ما يورده « الكتاب الصهيوني السنوي ١٩٤٧ — لندن ١٩٤٨ ، ص ٢٩٨ ، ٢٩٩ » فهو يقول :

« كان عدد اليهود في المانيا واوروبا الوسطى التي احتلتها القوات الالمانية في الحرب العالمية الثانية — عدا الاجزاء المحتلة من الاتحاد السوفياتي — هو

فقط ، عن طريق ممارستهم عمليات الابادة الجماعية . وقد كانت هذه العمليات منظمة بشكل لا سابقة له ، كما كان يجري تنفيذها بكل دم بارد إلى درجة أوجبت تحت عبارة « الإبادة العرقية »

١٠،٩١٨،٦٠٠ يهودياً في شهر ابريل عام ١٩٤٦ » .

ولا يحاول الكتاب اليهودي الاميركي ١٩٤٥ — ١٩٤٦ تقدير الارقام فيما بعد الحرب، ولكن ج ٤١ منه، والذي يبحث اوضاع سنتي ٣٩ ، ٤٠ ، يذكر في ص ٥٨٥ ، رقماً يرقى الى ٦،٤٨٤،٤٩٩ على أنه عدد السكان اليهود في تلك المنطقة . وبذلك يكون النقص بين سنة ١٩٤٦ وسنة ١٩٣٩ هو : ٥،٣٠٢،٨٩٩ شخصاً . وهو رقم قريب من التقدير الذي قدمه مجلس ممثلي اليهود البريطانيين في كتاب «اليهود في اوروبا، استشهادهم، ومستقبلهم» لندن ١٩٤٥ ، ص ٣٨ ، حيث يقول : « لقد نقص عدد اليهود من ستة ملايين ونصف الى مليون ونصف » .

إلا أنه كان هنالك احتمال كبير بالوقوع في الخطاء حسب هذه التقديرات، حيث ان المساحة التي يدور عنها البحث في تقدير سنة ١٩٣٩، وسنة ١٩٤٠ هي غير المساحة المذكورة في تقدير سنة ١٩٤٦ .

أما إذا اراد الباحث الوصول إلى رقم دقيق بهذا الخصوص ، فإن عليه ان يضيف إلى هذه التقديرات رقماً غير معلوم ، وهو عدد اليهود الذين قتلهم الالمان في المناطق المحتلة من الاتحاد السوفياتي ، كما أن عليه ان يطرح رقماً غير معلوم ايضاً ، وهو عدد اليهود الذين نجوا بأن هاجروا قبل ابريل سنة ١٩٤٦ ، سواء كانت الهجرة من المانيا أو المناطق التي احتلتها الجيوش الالمانية اثناء الحرب. وعلى كل فإن الرقم (خمسة ملايين) يبدو معقولا للغاية. وهؤلاء هم اليهود الذين تمت ابادتهم على يد العرقيين الالمان . ويرى الدكتور جيمس باركنز ، في رسالته المؤرخة في ٢٨ شباط سنة ١٩٥١ ، إلى المؤلف ان رقم ستة ملايين هو أقرب إلى الصواب. ولكن الدكتور يقترح هذا الرقم على اعتبار انه يضم يهود أوروبا الوسطى المحتلة ويهود الاجزاء السوفياتية المحتلة .

علّها تستطيع ان تصف ما كان في واقعه وحقيقته جريمة جديدة في سجل التاريخ .

ولا بدّ للمؤرخ المنصف من القول: ان تلك العمليات التي كان يجري تنفيذها في معسكرات الإبادة ، حيث يتم تسميم ضحايا النازيين، والسادية البغيضة السافلة في من بيدهم الأمر من الرجال والنساء الالمان ، كانتا أقل تنفيراً من الوداعة الذليلة والمسالمة الاجرامية التي كان يبديها مئات والوف الموظفين الثانويين الذين يقومون بتنفيذ تعليمات رؤسائهم الاجرامية الرهيبة . وكذلك الجبن الأدبي (من ناحية اخلاقية) الذي ابداه أفراد الشعب الألماني عامة .

لقد كانوا هؤلاء يحتاطون ليجنبوا أنفسهم معرفة الفظائع التي يقترفها ازواجهم وأولادهم واخوانهم وأحياناً اخواتهم وزوجاتهم وبناتهم ، ويقومون بها باسمهم . ومن هنا اراني مضطراً إلى تقرير الواقع حين أقول : إن الدرك الاخلاقي الذي انحطت اليه الروح الالمانية في ظل النازية كان رهيباً ، لا تعرّيه على حقيقته ... هذه الجرائم ، ولا يصور تدهوره التعذيب الجسدي الكثير الذي اقترفته الأيدي الالمانية ، بقدر ما يفضحه الكريه المنتن ، و « المثل الأعلى » المنحط ، الذي كان الرؤساء والتابعون في المانيا يخونون عن طريقه الأمـانة التي عُهدت اليهم حين ينشئون الأطفال الألمان في مدرستهم العرقية ... كانوا يلقنونهم كيف يجعلون حياة رفاقهم اليهود غير محتملة فيما بينهم ، ويظلون يحرضونهم على استعمال القسوة المدروسة معهم .

لقد هزّ ذلك التدهور الاخلاقي الفظيع الذي نكبت به امة متقدمة من أمم العالم الغربي الحديث في الربع الثـاني من القرن العشرين بعد المسيح ، أساسات عهد الاستنارة (العلمانية) التي ظل الغرب يبنيها ويمتّن آساسها طوال قرنين ونصف قرن من الزمن . وقد اظهر ذلك التردي ان الكسب الذي تم عن طريق الغاء التعصب اليهودي — المسيحي ، كرد فعل على الوحشية التي تمّ اقترافهـا في الحروب الدينية السالفة في أوروبا ، لا يعدل الخسارة التي نزلت — وقتّت معاناتها — من جراء غليان نقيض ذلك ، وهو حب المسيحيين لليهود . وبعد ذلك العرض الالماني للامكانيات البركانية الهائلة لخطيئة أصلية لم يتم ترويضها بعد ، غدا من المستحيل على الرجل الغربي أن يحتفظ بإيمانه الراسخ في التقـدم المحتوم لحضارته ، وكذلك في امكانيـة بلوغ الطبيعة الانسـانية الخالية من الشوائب ، إلى مرحلة عاليـة من الكمال المنشود .

وكان أشدّ مرارة من هذا ، بل وأدعى إلى العجب اضعافاً ان انحدار النازية العرقية إلى هذا الدرك كان أقل في مأساته من تردي اليهود الصهيونيين فيه ، غداة الاضطهـاد الذي كانوا هم ضحاياه ، والذي فاقت فظائعه كل ما عانوا طوال تاريخهم القديم : بل فاقت ظـلم أي اضطهاد عانته أية طائفة من الجنس البشري في اي مكان .

فماذا كان رد الفعل عندهم ؟

لقد كان ردّ الفعل المباشر عند اليهود ان غدوا هم المضطهدين

لغيرهم هذه المرة . ولأول مرة منذ سنة ١٣٥ م. ولما كانت هذه ول فرصة تسمح لهم ان يصبوا نقمتهم على آخرين أبريـــاء لم يذنبوا معهم ، إلا إذا كان ضعفهم في حد ذاته ذنبـــاً ، فقد طبّقوا المساوىء والآلام التي سبق ان طبّقها عليهم مضطهدوهم المسيحيون في الغرب طوال الثمانية عشر قرنـــاً المتوسطة بين الفترتين من التاريخ[1]

لقـد كان حوالى (٦٨٤,٠٠٠) من مجموع (٨٥٩,٠٠٠) عربي فلسطيني يقطنون في الرقعة التي احتلها اليهود الصهيونيون من فلسطين بقوة السلاح سنة ١٩٤٨ . وقد فقد هؤلاء بيوتهم وممتلكاتهم[2] . وغدوا « مشردين معدمين »[3] .

---

(١) اي منذ سنة ١٣٥ ، يوم تدمير الثورة اليهودية في القدس ، وحتى سنة ١٩٣٩ حين اعلان الحرب العالمية الثانية .

(٢) إن الرقم (٨٥٩٠٠٠٠) هو تقدير تقريبي لمجموع السكان من غير اليهود حتى تاريخ ٣١ كانون الثاني سنة ١٩٤٦ . وكان هؤلاء يقطنون المنطقة التي تم احتلالها حتى سنة ١٩٤٩ على يد القوات الاسرائيلية .

(التقدير النهائي لبعثة الدراسة الاقتصادية للشرق الاوسط سنة ١٩٤٩) . وهي بعثة تابعة لهيئة الأمم المتحدة .

وفي نفس المكان يذكر المصدر نفسه ان العدد الاجمالي للاجئين من الأراضي التي يسيطر عليها اليهود حتى تاريخ التقرير هو ٧٢٦٠٠٠٠ لاجيء، وذلك على اساس أن عدد الباقين في اسرائيل من غير اليهود هو ١٣٣,٠٠٠ شخص ، اما الرقم ٦٨٤,٠٠٠ ، فهو مبني على اساس تقرير الدكتور جيمس بارکنز ، والقائل بان عدد غير اليهود في اسرائيل حتى يناير سنة ١٩٥٠ ، كان ١٧٥,٠٠٠ شخص ، إذ ان ٤٢٠,٠٠٠ لاجيء فلسطيني قد عادوا إلى ديارهم خلال تلك الفترة ١٩٤٨ — ١٩٥٠ .

(٣) تقع المسؤولية المباشرة في هذه النكبة التي حلت بعرب فلسطين سنة

واذا كان ينبغي لنـــا قياس فظاعة اقتراف الجرم بدرجة انغماس المذنب في ذنبـه ، فان عذر اليهود في ترحيلهم عرب فلسطين من اوطانهم سنة ١٩٤٨ يقل عن عـذر نبوخذنصر ، وتيطس ، وهادريان ، ومحاكم التفتيش الاسبانية والبرتغاليـة ، فيما اقترفه جميع هؤلاء من استئصال شأفة اليهود ، واضطهادهم ، وإبادتهم ، في فلسطين وغيرها ، في فترات مختلفة من التاريخ القديم .

لقد كان اليهود سنة ١٩٤٨ يدركون فظاعة مايفعلون من تجريتهم الشخصية الخاصة . وهذا بحد ذاته مأساة كبيرة. ويزيد في عنف تلك المأساة أنه ما كان ينبغي ان يتمخض الدرس الذي عاناه اليهود على يد العرقيين الألمان، عن تقليدهم لتلك الاعمال الوحشية بل أن يتمخض عن تخلصهم منها[1].

١٩٤٨ على رأس اليهود الصهيونيين الذين اتخذوا لانفسهم هناك موطىء قدم بقوة السلاح . هذا واحد ، أما المسؤول الثاني فهو شعب المملكة المتحدة – بريطانيا – لأنه لم يكن بوسع اليهود أن يتخذوا ذلك الموطىء إلا بفضـــل السياسة البريطانية التي مارستها سلطات الانتداب طوال ٣٠ عاماً . ولم يكن من المعقول ان يفتح اليهود بلداً عربياً يكونون اقلية عديدة فيه ، لولا ما سهرت عليه الحكومة البريطانية من تسهيل الهجرة اليهودية وتشجيعها . وكان ذلك ضد رغبات السكان العرب ، بل وضد مصلحتهم على خط صريح . ولذا كان طبيعياً ان يغدو العرب سنة ١٩٤٨ ضحايا سياسة بريطانية طال وضعها في موضع التنفيذ بعد ان تم رسمها بكل دقة .

(١) ان القتل المنظم بدم بارد لبضعة ملايين من الجنس البشري في معسكرات الابادة ، هو اسوأ جرائم النازية ، لا يوازي جرائم ضحايا تلك

وحقاً ، لن تكون الجريمة الكبرى التي يعاقب عليهـــا الاشتراكيون الوطنيون الالمان يوم القيامة هي إبادتهم لأكثرية اليهود في الغرب ، بل كونهم السبب في تشويه خلق الباقين منهم وجعلهم إياهم يتردون في حمأة الرذيلة . لقد كان يهود أوروبا ما بين ١٩٣٣ — ١٩٤٥ ضحية لثورة غضب الألمان على الهزيمـــة العسكرية التي لحقت بهم على يد أقربائهم الحلفاء في الحرب العالمية الأولى. أما العرب في فلسطين سنة ١٩٤٨ فكانوا يدورهم الضحية البريئة لليهود الأوروبيين ، وحنق هؤلاء على إبادة العرق التي سلطها عليهم المسيحيون الغربيون ما بين (١٩٣٣ — ١٩٤٥) .

وربما كان الميل الذي يدفع الانسان أو الأمة للرد على جريمة جار أقوى باضطهاد طرف بريء اضعف ، وتطبيق نفس الظلم

النازية التي صبوها على العرب . لقد عامل الصهاينة عرب فلسطين بكل وحشية، فذبحوا الرجال والنساء والاطفال في دير ياسين في ٩ ابريل سنة ١٩٤٨. وكان لهذه المجزرة الاجرامية أثر كبير في دفع اعداد غفيرة من العرب الى الهرب ، وخصوصاً اولئك الذين كانوا يقطنون ضمن مـــدى فعالية القوات اليهودية المسلحة . أما بعد ذلك ، فقد طرد اليهود جميع العرب من المناطق التي تم احتلالها ما بين ايار سنة ١٩٤٨ ونهاية ذلك التاريخ عكا — شهر ايار. اللد والرملة — شهر تموز .

وحيث سقطت الناصرة سمح اليهود لأهلها العرب بالبقاء فيها . وكان المطرودون من عكا قد سبق ان طردهم اليهود من حيفا ، والمطرودون من اللد والرملة ، قد سبق ان اجبروا على النزوح من يافا . هذا علاوة عن سكان عكا واللد والرملة الاصليين .

ويبدو ان عدد الذين اجبروا على ترك ديارهم بالقوة هو ٢٨٤،٠٠٠ شخصاً من أصل ٦٨٤،٠٠٠ هم عرب فلسطين في المنطقة المحتلة والذين

الذي عاناه الأول على البريء الضعيف الجديد هـــو أدنأ الميول المنحطة في الطبيعة البشرية[1].

.....

أصبحوا مشردين معدمين فيما بعد .

وقد جرى ترحيل هؤلاء الـ ٦٨٠٠٠٠ على صورتين فمنهم من رحلتهم السلطات البريطانية قبل انسحابها أو انهم هربوا من تلقاء أنفسهم في الفترة الواقعة بين شهر كانون الثاني سنة ١٩٤٧ والتاسع من نيسان سنة ١٩٤٨ ، أي يوم دير ياسين .

وربما كان الدم العربي الذي اريق في تلك الجزرة الوحشية يقع على رأس قواد عصابة اراغون، أما طرد العرب بعد الخامس عشر من تموز سنة ١٩٤٨ فلا شك انه جريمة اسرائيل بكاملها .

وهناك من يبرر هذه الجرائم فيقول: لقد كانت الضحايا قليلة العدد نسبياً، كما ان الوحشية فيها لم تتسم بطابع الفظاعة النازي ما بين ١٩٣٣ — ١٩٤٥ . ولكن من يفعل ذلك يغفل او يتجاهل عن ان يأخذ بعين الاعتبار حقيقة واضحة . ألا وهي ان اليهود كانوا خبيرين بطرق التعذيب التي يمارسونها مع ضحاياهم ومعنى هذا انه :

اذا جاز للنازيين ان يدافعوا عن أنفسهم بهذه الحجة الواهية ، كأن يقولوا : لم نكن نعرف آلام وسائل التعذيب هذه فان الاسرائيليين مجردون حتى من ذلك التبرير السخيف . لقد كان الاسرائيليون يعون جرائمهم كل الوعي ، ومع هذا فقد أصروا على اقترافها .

(١) لقد انتصر الحلفاء على الألمان فاذلوا كرامتهم . وحقد هؤلاء ... واليك ما حدث بعد ذلك . لقد اذاق الالمان جيرانهم اليهود الضعفاء كل ظلم . وها هم اليهود ينتقمون من جيرانهم العرب ، ولمجرد انهم ضعفاء أيضاً . مع انهم لم يظلموا اليهود من قبل .

والحقيقة ان هذا الطبع موجود في الطبيعة البشرية المغلفة بقشور مختلفة منها الجرمانية والصهيونية . وقد تكرر فعل مثل ما سبق على طول عصور التاريخ . ففي عام ١٤٩٤ قام الفرنسيون بمثله تجاه الايطاليين .

على هذه الصورة كان مد الموجة التي اكتسحت عرب فلسطين سنة ١٩٤٨ ارتداداً لانفجار العلاقات بين المسيحيين واليهود في خطوط الطول الغربية وفيما وراء افق[1] عرب فلسطين أنفسهم. كما كانت نتائجها المفجعة على هؤلاء الغرباء الأبرياء بنشأ بعيدة للجريمة الجديدة في غرب اوروبا ووسطها.

كان العطف على آلام اليهود في المجتمع الغربي الحديث الذي انعكست ظلاله على باقي الجنس البشري قد غدا قوة ذات شأن في العالم. فقد آل ذلك العطف إلى أن يكون قوة فعّالة في الحياة السياسية للدول الغربية الكبرى. وبالتالي غدت مشكلة توطين اليهود، وهي مشكلة لا تزال غير محلولة في الغرب، مرتبطة بمخاطر يخشاها اللاغربيون واللايهود الذين لا علاقة لهم بهـــذه

وفي سنة ١٩٢٠ قام الفرنسيون ايضاً بمثله تجاه امل سوريا.

لقد غلبت بريطانيا فرنسا في حرب المئة سنة ١٣٣٧ — ١٤٥١، فاثنت فرنسا تود أن تستعيد كبرياءها الجريحة بأن اعلنت الحرب على ايطاليا سنة ١٤٩٤. وقد دامت تلك الحرب حتى سنة ١٥٥٩. وهكذا دفعت ايطاليا الثمن، مع ان انكلترا لا ايطاليا هي التي اذلت فرنسا.

أما سنة ١٩٢٠ فكان الفرنسيون يثأرون من السوريين لأن الألمان احتلوا الاراضي الفرنسية سنة ١٩١٤. فيا عجباً ما كان اعدل هذا الثأر ؟؟

(١) في سنة ١٩٤٨ كان من الممكن لعرب فلسطين ان يتذكروا ويطبقوا الكلمات القليلة التي تلفظ بها «نيفيل تشمبرلن» في ٢٧ ايلول ١٩٣٨ حين قال: «يا لها من فظاعة، وهستريا جنونية لا يصدقها عقل».

وعرب فلسطين، لا بد ان بدا لهم أنه كان عليهم ان يفقدوا وطنهم، «بسبب نزاع يقوم في بلاد بعيدة لا يعرفون عنها ولا عن شعوبها شيئاً».

المشكلة ، إلا من طرف انهم خاضعون لنفوذ الغربيين . ولهذا أصبحت مواجهة مشكلة استيطان اليهود القائمة في العالم الاسلامي في الوقت الحاضر ، كما هي الحال في اليمن والمغرب ، نتيجة محتومة تتعلق بطرف ثالث . وكان المجتمع الاسلامي في القرن العشرين عاجزاً عن ان يسدد ديونه لحساب أي طرف على الاطلاق . إلا أنه لم تكن هنالك قوة على سطح الأرض تبلغ من القوة ما يجعلها تقول «لا» للمجتمع الغربي، عندما شاء المنتصرون الغربيون في حرب ١٩٣٩ - ١٩٤٥ ان يعوّضوا يهود أوروبا عن الجرائم التي اقترفها ضدهم مهاويس الحرب الألمان على حساب شعب شرقي بريء بدلاً من حساب الغرب المجرم . وبفعل عجز العرب عن مقاومة ذلك الظلم كان كل ما يستطيع الجنس البشري فعله لا يتعدى ان يتعجب مندهشاً من محاولة الغرب الحصول على تكفير جريمة غربية بفرض عقوبة مناسبة على غرباء لا علاقة لهم بالمشكلة من قريب أو بعيد !!

اسباب فشل التحرير (عند اليهود)

كان الفصل الرابع من تلك الدرامـــا التي كانت اليهودية والغرب الحديث يمثلانها على مسرح التاريخ ، مأساة غير لذيذة من جميع الأطراف . وإلى درجة ان المؤرخ لا يستطيع ان يتحاشى تقليب صفحاته بغية اكتشاف المعالم التي زلّ فيها ذلك الفصل مع أنه كانت تبدو عليه سمات النجاح . وكانت احدى هذه الاشارات التي لا مناص من مناقشتها هي :

استمرار بقاء الحاجز السيكولوجي بين المسيحيين الغربيين وبين اليهود ، بعد ان كان الحاجز القانوني بينهما قد أزيل رسمياً . كان لا يزال هنالك « غيتو » في عالم الغرب الليبرالي في القرن التاسع عشر ، فظـل المسيحي الغربي يحتجز اليهودي فيه ، كما ظل اليهودي من جانبه أيضاً يحشر نفسه وينعزل عن مواطنه المسيحي . وكان اليهودي الذي تمّ تحريره بصورة اسمية يجد نفسه لا يزال مقصيّ بالفعل — بحكم الواقع لا بحكم القـانون — عن الفرص الاجتماعية الكثيرة ، ومجرّداً من الحقوق التي يتمتع بهـــا رفيقه المسيحي الذي يعترف به رسمياً كعضو مساو له في مجتمع متحـد . وكان المسيحي يجد نفسه قبالة ماسونية حرة — وهي أيضاً واقعية أكثر منها مقصودة —

بين اليهود الذين ظلوا يتوقون الى المطالبة بالمنافع والخيرات دون الرغبة في الانسجام . كما كانوا يدعون الى المساواة الفعلية بين جميع أعضاء الطائفتين كنتيجة للاعتراف الرسمي بالمساواة فيما بينهما .

وفي الحقيقة لقد ظل كل من الطرفين يتصرف حسب مستوى ازدواجي في سلوكه :

مستوى أرفع للتعامل مع أعضاء مجتمعه الذين من عرقه

ومستوى أدنى من هذا ، في التعامل مع المواطنين الآخرين الذين يفترض أن لا يجري وضعهم في مركز اجتماعي منفصل . وكان هذا الغلاف من الرياء الذي يحنط الرذيلة القديمة ويبقيها — اي رذيلة عدم المساواة — هو الذي جعل كلاً من الفئتين أقل اعتباراً ومودة في أعين الفئة الأخرى . وكان شأن هذا أن جعل الموقف العام يظل أقرب الى القنوط وأعصى على الحل كما انه أقل وحدة وانسجاماً عند كلتا الطائفتين .

وهكذا ، كانت النتيجة المباشرة للعتق اليهودي في الغرب فاشلة بشكل يبعث على السخرية والاشفاق . ومع انه قد تم الحصول على اصلاح الموقف الأساسي في العلاقات ما بين الطائفتين فيما بعد ، فان طبيعة المغامرة فيه قد تكشفت في العالم الغربي على شكل تكرر الحوادث اللاسامية أثناء القرنين التاسع عشر والعشرين . وقد برز ذلك في كل مكان حدثت فيه زيادة سريعة في النسبة العددية لليهود بين السكان المحليين الغربيين . ولم يكن هذا (الميل) خفي الملامح في سنة ١٩١٤ ، لا في لندن ولا في

نيويورك ، بل كان واضحاً تماماً كنتيجة لتدفق الهجرة اليهودية عليها منذ سنة ١٨٨١ . وقد جاء اليهود المهاجرون من منطقة النفوذ البائدة للمملكة المتحدة ، المؤلفة من بولندا وليتوانيا ، وكان ضغط الاضطهاد الروسي المتعمد[١] هو الذي دفعهم الى الهجرة .

أما بعد سنة ١٩١٨ فقد غدا ذلك (الميل نحو اللاسامية) عنيفاً في النمسا الألمانية والرايخ الألماني كنتيجة لتدفق الهجرة اليهودية المتزايدة من غاليسيا « كونغرس بولونيا » والمناطق الاكثر بعداً الى الشرق ، خلال الحرب العالمية الأولى[٢] . وحينئذ

---

(١) لقد ارتفع عدد اليهود في الولايات المتحدة ، وفي عقدين اثنين من الزمن فقط أكثر من مليون شخص بعد ان كان لا يتجاوز ربع مليون ، أما في بريطانيا فقد أصبح ربع مليون بعد ان كان (١٠٠٠٠٠) في السابق.

وقد استقبلت كل من فرنسا ، وهولندا ، والمانيا عدداً يتراوح بين عشرين الفاً وخمسة وعشرين الفاً من اللاجئين وكان المهاجرون الجدد يختلفون عن اخوانهم اليهود الذين عرفهم الغرب قروناً عديدة .

كانت أعدادهم الضخمة ، مضافاً اليها شك جيرانهم فيهم ، هي التي احجت في نفوسهم ميلا الى القبلية العنصرية ، فزاد ذلك في ان يجعل تمثلهم عسيراً من جميع أطرافه ، سواء من الناحية السياسية او الاجتماعية او الاقتصادية .

« مشكلة اليهود في العالم الجديد — نيويورك — ١٩٤٦ — جيمس باركنز — ص ٦٧ — ٦٨ » .

(٢) لم تكن اللاسامية التي اظهرها مسيحيو بولندا وهنغاريا ورومانيا بعد سنة ١٩١٨ تعود في أصلها الى تغير في النسبة العددية لليهود في تلك البلدان . اذ ان الهجرة منها قد انقصت عددهم فيها ، فخف ضغطهم في هذه

كشفت هذه الدلائل والامارات وضعاً حقيقياً للأمور ، لم يكن مخيباً للآمال فحسب ، بل أنه خطر أيضاً . ومع هذا فإن تلك الخيبة المتشبهة لم تكن لتقدم أسساً معقولة للقنوط .

ومن خصائص الطبيعة البشرية ان النفس الإنسانية فيهـــا تحتاج إلى فترة معقولة من الوقت حتى تستطيع أن تتكيف من ناحية عاطفية ، ثم تتقبل المستحدثات التي يفرضها العقل بضربة

الاقطار نتيجة لزيادة ذلك الضغط في كل من النمسا والمانيا وبريطانـــيا والولايات المتحدة .

اما ظاهرة (الحرب ضد اليهود) في اوروبا الشرقية هذه فترجع أسبابها الى نواح تاريخية . وتفسير ذلك : انه في سنة ١٩١٨ كانت البلدان الواقعة الى الغرب من (المنطقة المحظورة) قد بلغت المرحلة الثالثة من تطورها ، اي ان فيها بورجوازية مسيحية راسخة الاصول يشعر أفرادها في انفسهم القدرة على منح اليهود حريتهم (مسلم ان ذلك مخاطرة من طرف تلك البورجوازية) .

اما البورجوازيون المسيحيون في بولندا وهنغاريا فقد كانوا لا يزالون في المرحلة الثانية من تطورهم ، أي المرحلة العدوانية التي يطمحون فيها الى احتلال مراكز يهود بلادهم الاقتصادية ، وكانوا يفتشون عن سبيل يمكنهم من زحزحة اولئك اليهود الاثرياء من طريقهم .

وفي رومانيـــا على الخصوص كان البرجوازيون الغربيون لا يزالون في المرحلة الأولى ، أي تلك المرحلة التي يكون فيها اليهود الذين يتعاطون في الصناعات الراقية من الحياة الاقتصادية مكروهين من قبل السكان المحليين ولكنهم ضروريون لهم في نفس الوقت . وعلى نقيض ذلك كانت الحال في المانيا والنمسا ، اذ ان الخشية من النكوص من المرحلة الثالثة الى المرحلة الأولى بفعل الازمة الاقتصادية الخانقة التي مهدت لها الحرب العالمية الأولى مسؤولة جزئياً عن ظهور احداث اللاسامية هناك .

قلم واحدة من المشرّع . ولو كانت القضية اليهودية في العالم الغربي مما يمكن عزلها عن الاطار الايديولوجي الغربي المعاصر لكان « الزمن » قد وقف إلى جانب حلٍّ تدريجي لتلك المشكلة . وخصوصاً في الحين الذي تمّ فيه حلها بشكل جزئي — كما ظهر في الزيادة المضطردة في نسبة التزاوج بين المسيحيين واليهود — كان تياراً تقريباً يشير إلى التقدم على طريق الحل الدائم . ولكنه من سوء الحظ ان تلك العملية الخيّرة من الاندماج بين الفريقين، والتي بشّرت بخير امل لحل القضية اليهودية في البيئة الايديولوجية الفريدة للتقاليد الاجتماعية الغربية — كان قد سبقها تيار غريب . وقد استطاع ذلك التيار ان يقلبها .

لقد قلبها انفجار القومية الغربية الحديثة وما رافق ذلك من التدمير الاجتماعي الذي حملته هـــذه الكارثة الايديولوجية في طياتها . وهكذا ظلت قضية اليهود غير محلولة .

وقد هاجمت القومية الغربية الحديثة اليهود المشردين في العالم الغربي من ناحيتين في نفس الوقت :

فقد استاقت اليهود الغربيين بعامل الجذب فيها .

كما اضطرتهم بفعل زخمهـــا إلى ان يخترعوا لأنفسهم قومية يهودية جديدة .

وكانت هذه على شاكلة شعار (فرنسا فوق الجميع) ، أي انها شكل جماعي قوامه الميل إلى الأخذ بالاساليب الغربية — أي دولة قومية — كنقيض للفردانية (أي الفردانية اليهودية) التي رافقت التوسّع الليبرالي الغربي الذي سبقها .

وكالمثل الأعلى الغربي السمات الذي يقول بتحويـــل الفرد اليهودي إلى بورجوازي غربي يعتنق الديانة اليهودية العالمية، برز نقيضه المثل الغربي الآخر القائل بتحويل اليهودية العالمية إلى قومية محلية (اي انموذجاً غربياً مركزاً ضمن حدود رقعة وطنية ذات سكان من عرق واحد شامل) . وكان هذا شاهداً على ان تحرير الشعب اليهودي في القرن التاسع عشر بعد الميلاد كان اجراءً جذرياً كافياً لأن يعرّي طبيعة اليهود الغربيين لأول مرة في التاريخ . كما أنـــه خير محك صالح لأن يكشف علاقاتهم بجيرانهم المسيحيين ، ويعرضها لتأثير الافكار الغربية السائرة والمثل الموجودة .

وفي هذه الاثناء ولدت الصهيونية ..

فكانت بشهادة تيودور هرتزل نفسه ، شاهداً على القلق في نفوس يهود الغرب في القرن التاسع عشر خشية ان تصهرهم بوتقة « الامتصاص الفردي ». وكان قد تم فتح باب ذلك التيار على يدي اليهود الغربيين أنفسهم ، وبفضل الليبرالية المسيحية المنصرمة . كان اليهود يخشون أن تنسد عليهم الطريق بفعـــل اشتداد موجة القومية الغربية الحديثة التي أخـــذت تسير سيراً ملحاً في اعقاب الليبرالية السابقة . وقد لاحظ جيل الربع الأخير من القرن التاسع عشر عنف الحركة اللاسامية في العالم الغربي ، وأدرك إماراتها ولكنه قدّر انها غير متوقعة قريباً .

أما الضربة الكبرى التي وُجهت الى اليهود الغربيين في هذا الجيل فكانت بتحريض القيصرية في (المنطقة المحظورة) وقـــد

لجأت القيصرية إلى هذه الواسطة الدنيئة سنة ١٨٨١ وما بعد ذلك ، علها تنجح في ما تراءى لها من أمل في تحويل نقمة رعاياها ، من كونها ضد تلك القيصرية ، إلى جعلها ضد اليهود المجاورين . ولكن انفجار هذه الموجة الجديدة من الضغط — على اليهود — في المناطق الواقعة الى الشرق من العالم الغربي ، والناتج عن مبادرة نظام لا غربي ، لم تكن امارة تنذر بالخطر كالأعراض المعاصرة التي برزت في كل من المانيا وفرنسا . ولم يكن الانفجار الأول للاسامية في المانيا ما بين ١٨٧٣ — ١٩٠٦ خطيراً بفعل سرعته . « كان زوبعة في فنجان » . أما قضية دريفوس (١٨٨٤ — ١٩٠٦) التي خضعت لموجتها فرنسا الليبرالية ساعة اذلالها وتردّي معنوياتها ، بعد هزيمتها المنكرة عام ١٨٧٠ ، فكانت أعمق أثراً وأشد خطراً . وكان منظر المظاهرات المعادية لليهود في باريس في نفس الوقت الذي كانت فيه المعركة متأججة حول قضية دريفوس هو الذي حول الصحافي اليهودي النمسوي (هيرتزل) من داعية قوي من دعاة اندماج اليهود مع مواطنيهم ، إلى كونه رسولاً مبشراً للصهيونية .

ولربما كان أكثر من صُدفة عارضة أن صهيونية القرن التاسع عشر اليهودية ، واللاسامية الجديدة الالمانية في القرن العشرين قد نتجتا بالتعاقب في نفس المنطقة الجغرافية من العالم الغربي .

وكذلك ، هذه المنطقة هي الأقاليم الناطقة بالالمانية من الامبراطورية النمسوية ، والواقعة الى الغرب من ممتلكات التاج

الهنغاري للقديس اسطفان والمملكة المتحدة السابقة .

وتقع هذه المنطقة النمساوية على بعد كاف الى الغرب يسمح لسكانها اليهود ان يخضعوا ويتأثروا بعدد من الايديولوجيات الغربية المعاصرة — بما في ذلك القومية والليبرالية — في عصر ليبرالي غربي جديد . كما أنها تقع على بعد كاف الى الشرق يسمح لسكانها المسيحيين ان يكونوا أقل خضوعاً للتأثر بالايديولوجيات التي تجاوزت الغرب الليبرالي وتلك التي كانت لا تزال سائدة بين الشعوب المسيحية المختلفة الواقعة على حدود « المنطقة المحظورة » بعد سطوع فجر الليبرالية في الغرب ، وبعد ظهور الفكرة القائلة بأن اليهود الغربيين يستطيعون أن يكسبوا ، إذا ما تبنّوا القومية الغربية ، ملجأ ما كان يتأتى لهم الحصول عليه عن طريق التحول الى الليبرالية الغربية .

وكذلك ليس صدفة ان تلك الفكرة قدمت نفسها الى عقول اليهود النمساويين الذين كان وضعهم في القرن التاسع عشر مهدداً بهجومات القومية المسيحية الحديثة من أوروبا الغربية كما أنه مهدد من اللاسامية القروسطية في المنطقة المحرمة .

اليهود والقومية المسيحية الغربية الحديثة

لقد كانت القومية المسيحية الغربية بطابعها الانعزالي الذي يفرض فيه المجتمع على نفسه نوعاً من « الغيتو »، نوعاً من المبالغة المقيتة إلى درجة الكاريكاتور للفكرة الغربيـــة التقليدية عن وجود مجتمع قائم بذاته وقد تدخلت ظروف كثيرة في هذه الايديولوجية الغربية « القديمة — الحديثة » في أميركا الشمالية وغرب أوروبا ، فجعلتها هذه الأقطار نوعـاً من تكريس جمود جمود الدولة ضمن الحدود الحالية على الخريطة . وفي حوالى نهاية القرن الثامن عشر كان السكان في فرنسا والأقطار الغربيـــة الأخرى ، الواقعة على شاطىء المحيط الأطلنطي ، موزعين على شكل كتـل متجانسة تقريباً يتجاوب توزيعهـــا مع الحدود المالكية المعاصرة الآن . ومع أن حمى القومية أخذت تزحف تدريجيـاً صوب الشرق ، فتصيب بعدواها كثيراً من المناطق للعالم الغربي ، ثم تجتازهـا إلى مختلف البقاع اللاغربية المجتمع . فقد ظلت تهاجم كل دولة قائمة حين تجد مـا يعارضها في واقع تلك الدولة . كما أنها ظلت تخلق تنازعاً بين الدول نتيجة للتعارض الشديد أو اليسير فيما بين مثيل تلك الدول العليـــا . وأخيراً كان لها أن تهاجم شتات اليهود الغربيين ، وحينئذٍ بدا تأثيرها

في مجتمع لم يكن توزيعه الجغرافي ولا ولاؤه السياسي يوفران للقومية أي مركز على الاطلاق .

ولم يكن اليهود وحدهم هم الذين انقلبوا من غير الغربيين فاعتنقوا فكرة هذه القومية الغربية الحديثة .

لقد كان هناك الأرمن ، ووضعيتهم أقرب ما تكون الى وضعية اليهود في الغرب لولا أنهم كانوا يختلفون اختلافاً بيّنا عنهم. لقد ظل الارمن دهراً طويلاً، وحتى القرن التاسع عشر والعشرين لهم بقية تحتفظ برقعة من أرض أجدادها. وكان هؤلاء لا يزالون يقومون بعمران تلك الأرض وحراثتها . وفي الوقت الذي كان فيه المشتتون اليهود والأرمن يحملون بينهم معالم شبه كبير من حيث توزيعهم الجغرافي ، والمهن التي يتعاطونها ، والتركيب المجتمعي لكل من الشعبين، بل والاستعداد السيكولوجي أيضاً — فإنه لم يكن يتوفر لليهود ذلك العنصر الموجود عند الأرمن وهو كونهم ذوي طبقة فلاحية أرمنية تقطن في مدن « فان » و « يرفان » و « كاراباغ » . وعلى ضوء النتائج التي ترتبت عن زخم الدوافع القومية عند الارمن ، كان هذا الفارق في الوضع بينهم وبين اليهود في القرن العشرين ذا تأثير كبير على مفاهيم اليهود ومقدراتهم التي تلت. ففي حالة المشتتين الأرمن كان زخم القومية قد أزال عنصر المأساة الذي واكب حظهم ، أو خفف من شدته كثيراً. ذلك لأن تبني المشتتين الأرمن الذين كانوا أقلية في كل مكان للأفكار القومية قد هدد الأكثرية غير الأرمنية التي كانوا

يقطنون فيما بينها . وكان التهديد مباشراً يحمل في طياته أحد النقيضين :

إما الخضوع او النزوح .

وقد عمدت الاكثرية الحاقدة إلى ضمان مستقبلها بطريقة بربرية فظيعة .

لقد فتكت بأولئك المشتتين الأرمن عن طريق مذابح وحشية متتالية، وأزالت وجودهم من على الخريطة وعن طريق ترحيلهم من مواطن إقامتهم .

هكذا وقع الارمن ضحايا رخيصة في عهد الامبراطورية العثمانية بين سنتي ١٨٩٦ — ١٩٢٢ . وكان من حسن الحظ ان الشعب الارمني لم ينقرض عن بكرة أبيه من جراء هذه النكبة التي سببها لهم ارتدادهم إلى القومية . وكان ذلك لسبب بسيط، فشكراً للظروف التاريخية السابقة التي كانت قد رحمتهم فأبقت قلة منهم تمتلك رقعة معينة من الارض تكون هي الاكثرية الكبرى من سكانها المحليين . انها « أرمينيا » .

وكان الجيل الارمني الذي شهد ذلك التدمير والفتك الذي صبّه الاتراك على رأسه هو نفسه الذي شهد عصر تأسيس دولة ارمنية صغيرة برزت على شكل «جمهورية أرمينيا السوفياتية» ضمن اطار الاتحاد السوفياتي الكبير .

وقد أوضحت تلك التجربة التي عاناها الارمن ظاهرة بسيطة من شريعة القومية تبدت بصراحة للمؤرخين مع ان

معتنقي فكرة القومية كثيراً ما تجاهلوها .. تلك الظاهرة هي الناحية التخريبية في القوميـة ، والتناقضات بينها وبين الدولة المحلية ذات الواقع الجغرافي والسياسي الموجود . وقـد ظهر اثر ذلك حتى في المستعمرات البريطانية السابقة في اميركا الشمالية حين كان الاتفاق على أقله في عهد الحرب الثورية ، إذ اتخذ شكل طرد الموالين « للامبراطورية البريطانية » هناك .

لقد كانت النتائج الكبيرة المـدمرة التي سببها زخم فكرة القومية للشعب الارمني ، تتناسب إلى قدر كبير مع درجة اتفاق او تنافر تلك القومية مع اوضاعهم .

والآن مـا الذي كان لا بدّ ان ينتج من تأثير زخم فكرة القوميـة على اليهود ، الذين كانوا مجمدين إلى أقصى الدرجات ؟ حين ظهرت الصهيونية في القرن التاسع عشر بعـد المسيح ، كان قد مضى سبعة عشر قرناً منذ آخر يوم شهد وجود رقعة يسكنها اليهود في مجتمع زراعي يقابل الطبقة الفلاحية الارمنية في المنطقة المجاورة لـ « يرفان » . وقد ظـل اليهود لا وطن لهم من ذلك النوع منذ تاريخ سنة ١٣٥ بعد[1] الميلاد ، حين اقتلعت الكتائب

---

(١) لقد ظلت بعض مجموعات من اليهود تقطن على ضفتي نهر الاردن ، وفي السهول الضيقة المنتشرة هناك ، بعد ان اقتلع الجنود الرومان آخر جذور المجتمع الزراعي لليهود في بيت المقدس .

كما ظل عدد قليل منهم في الجليل . وكانت بطريركية الجليل تمارس نوعاً من النفوذ السياسي والسلطة الدينية حتى عام ٤٢٥ م . ثم تلاشت . ولذلك يجوز ان يعتبر هذا التاريخ نقطة الفناء الاخير لكل ما يمكن ان يطلق عليه اسم حكومة أو دولة يهودية في فلسطين .

الرومـانية جذورهم من الأرض في بيت المقدس . ونتساءل : أية تطبيقـات عملية لـ « المُثُل » الغربية الحديثة للقومية كان يمكن ان يتفتح عنها التاريخ لشعب أصيب بهذه النكبة التاريخية منذ القدم ؟

كان للقوميين اليهود الخيار من ناحية نظرية بين نقيضين.

وكان هدفهـم ، وهو الحصول على أرض تصلح أن تكون موطناً لليهود فتغدو أرضاً يهودية كما أن انكلترا انجليزية ، لا يتم ولا يتأتى إلا عن طريق استعمار ارض لا يمتلكها أحد «ارض بكر غـير معمورة » ، أي أرض قد تم للرواد الغربيين ان افتتحوها .

هذا حل واحد .

أما الآخر ، فهو أن يعمد اليهود إلى طرد السكان غير اليهود من ذلك الجزء من فلسطين الذي كان يقطنه بنو اسرائيـل في سالف الأيام ، أي قبل سنة ١٣٥ ميلادية [١] .

---

(١) كان التغير الذي عقب الفتح الاسلامي لفلسطين عام ٦٣٦ – ٦٣٧ م غير شامل . ومن المحتمـل انه كان على نطاق أضيق من حيث النسبة العددية الجماعات العربيـة التي هاجرت إلى هناك بعد الفتح . ولكن العرب الذين وفدوا على فلسطين تدريجياً ، طوال الـ ١٢٦٠ عاماً التي عقبت ذلك ، قد استطاعوا ان يجعلوا فلسطين بلداً ينطق اهله باللغة العربية عن طريق هضم العرب اياهم وصهرهم فيهم ، اكثر من طريق طردهم من الامـاكن التي وجدوهم يقطنونها من قبل .

وقد رفض اليهود الحل الاول .

أما الثاني فكانت تعترض طريقه عقبات كثيرة من ناحية معنوية وناحية مادية أيضاً . وكان هذا الحل يتطلب ترحيل شعب موجود كان حتى سنة ١٨٩٧ – السنة التي جاء فيها « تيودور هرتزل » بالحركة الصهيونية – هو الشعب المعتبر صاحب الحق الاصيل في وطنه ؛ حيث ظل يقطن ذلك الوطن منذ أكثر من سبعة عشر قرناً ونصف قرن بعد التغيير الكبير الاخير في تكوين سكان فلسطين . وهو التغير الذي حدث عقب اخضاع فلسطين للسلطة الرومانية كما عقب آخر ثورة قام بها اليهود ضد الادارة الامبراطورية الرومانية . وكانت نتيجة تلك الثورة أن قدمت جماعات « غير يهودية » إلى فلسطين وقامت بعمران منظم لتلك البلاد فأزاحت اليهود من مراكزهم فيها (١) .

وحتى لو فرضنا – مع أن هذا الفرض يعوزه كل إسناد – ان السكان الذين عقبوا في فلسطين لم تكن فيما بينهم أية عناصر كانت قبل القرن الثاني من الفترة المسيحية ، فان طول بقاء سكان فلسطين حينئذٍ فيها يجعلها وطناً لهم مدة أطول بفترة تبلغ ١٠٠ سنة على الاقل أكثر من الفترة التي ظلت فيها بعض أجزاء تلك البلاد مسكونة من قبل ابناء اسرائيل ويهوذا . هذا

---

(١) راجع الدكتور « سبرونر – ك » والبروفسور « مينكة » وكذلك « اطلس انتيكس » ط ٣ لوحة رقم ٢٦ ، والمعنونة باسم « سوريا الفينيقية وسوريا وفلسطين في عهد المسيحية سنة ٧٠ » .

على افتراض ان هاتين الدولتين لم تكونا تضمان اية عناصر غير يهودية ولا عناصر من السكان السابقين لقدوم اليهود . وعلى اعتبار اطول فترة زمنية يسمح بها التاريخ بين دخول الاسرائيليين على شكل جماعات وقبائل رحل في أيام الامبراطورية المصرية الجديدة وبين طردهم من فلسطين على يدي الرومان سنة ٧٠ ثم ١٣٥[١] بعد الميلاد . ويشبه ذلك الطرد فعلاً ما وقع للسكان

---

(١) يشير الدكتور جيمس باركنز إلى ذلك معلقاً بقوله :

« إنني لست اعتقد بأن الجدل حول تغير السلطة ودوام الاقامة سليم من الناحية المنطقية . فلم تمر على فلسطين لحظة او فترة تاريخية واحدة تم فيها تغير السكان تغيراً جذرياً، حتى في اقسام كبيرة منها، فكيف بها كلها؟ والكثير ممن يعتقدون من املها أنهم ذوو أصل عربي اليوم يرجع اسلافهم في حقيقة الأمر إلى كونهم « كفاراً » أو « كنعانيين » أو يهوداً متأخرين. ومن المحتمل ان يكونوا مسيحيين في العهد الذي عقب عهد الامبراطور « جوستنيان » .

تم هنالك تغير ما ، ولكنه من العسير تحديد حجمه . وقد كان هنالك يهود في فلسطين بعد الفتح العربي ، وطوال قرن كامل من ذلك التاريخ ، أكثر مما كان في البلاد عرب او مسلمون . اما حين اعتنقت غالبية السكان دين الاسلام واتخذت العربية لغة لها ، فمن المحتمل انها كانت إما يهوداً مضطرودين، أو مسيحيين سابقين اكثر من كونهم عرباً وافدين من الصحراء مع ان جموعاً غفيرة من هؤلاء قد استوطنت البلاد، وخصوصاً بعد ان شرعت الحكومة قوانين تشجع استقرار البدو .

وقد دعتني هذه النبذة من تعليق الدكتور باركنز إلى ان اقول :

انني اتفق مع الدكتور باركنز تمام الاتفاق بخصوص هذا الرأي ، واضيف اليه فكرة هي بمثابة تعليق من عندي : يرى الدكتور ان حق سكان فلسطين أو أي بلد آخر ينبع من بقائهم مدة طويلة يسيطرون فيها على وطنهم ، وتقوم سلامة ذلك على أساس تقديم الحجة القاطعة التي تثبت ان اصل الجيل

الذين كانوا يقطنون فلسطين في نهاية القرن التاسع عشر قبل الميلاد كما يشبه طرد الذين كانوا فيها سنة ١٩٤٨. اذ لم يكن مثل هذا الطرد ممكناً إلا باستعمال العدوان العسكري وعلى أساس ان تقع الخسارة من جرائه على رأس السكان الحاليين في البلاد. تماماً، كما فعلت القبائل المتوحشة من ابناء اسرائيل ويهوذا عندما عبرت إلى فلسطين من الصحراء العربية وما فعله الفلسطينيون « المينيون » عندما غزوا فلسطين من « كريت » وكذلك ما فعله الصليبيون المسيحيون الغربيون عندما نفذوا إلى البلاد عن طريق البحر.

وكان هذا العدوان عسيراً من حيث الناحية العسكرية والسياسية. وقد ظل كذلك طوال ما بقيت فلسطين في حوزة

الحاضر في هذا البلد أو غيره قد ظلوا في بلدهم طوال بضعة قرون. فإذا قبلنا هذا الرأي تكون حجة الجيل العربي الحاضر في فلسطين بين ١٨٩٧ — ١٩٤٨ قوية جداً على اساس الحقائق التاريخية لكونهم هم الجيل الحاضر والوارث والممثل، ليس فقط للعرب الذين توافدوا على فلسطين مع الفتح الاسلامي وبعده، وليس فقط لغير اليهود «الهيلينيين» والذين تقبلوا الحضارة الهيلينية، وانشأوا لهم مستعمرات في فلسطين في القرن الثاني بعد المسيح، بل لكونهم ممثلين ايضاً لابناء مملكة يهوذا واسرائيل انفسهم. وكذلك الاسرائيليين القدامى الذين امتزجوا بالكنعانيين، ومنذ اقدم الازمنة، أي في المرحلة التي تقع بين فترة ظهور الانسان العاقل والانسان النياندرتالي.

ملاحظة: انظر « علم تنقيب الآثار في فلسطين » سلسلة بنغوين ص ٥٩٠.

* يشير الدكتور جيمس باركنز إلى بني قريظة وخيبر وبني قينقاع وبني نضير. (المعرب)

الامبراطورية العثمانية ، وإلى ان استطاعت الصهيونية ان تحرز سنداً من مجموعة من القوى الغربية . وكانت الظروف الحربية والسياسية الآنية لا بد وان تجعل حماية مثل هذا العمل عسيرة للغاية . وكذلك الدفاع عنه في عالم يجعل تقدمُ علم «التكنولوجيا» فيه صوتَ الحرب ممجوجاً أكثر فأكثر إلى درجة ان العدوان غدا يتصف بالجريمة التي طالما ارتكبها .

وكذلك، ومن ناحية أخرى، كان لا بد وان يضحي عسيراً على الصهيونيين ان يبرروا فعلتهم ، ليس بالنسبة إلى المسيحيين فقط ، بل في نظر اليهود الأرثوذكس من ابناء مدرسة التفكير الهادئة والمدعوة « أغودات اسرائيل »[1].

(١) إن طبيعة « أغودات اسرائيل » والفرق بين سلبيتها ولا – عنفها، وبين ايجابية وعنف « الحبر ، جوهانان بن زكاي » ترجع في اصلهـا إلى التحدي الذي واجهه اليهود عند سقوط « اورشليم » سنة ٧٠ بعد الميلاد .

نتائج ابتعاد الصهيونية
عن استعمال التقليد اليهودي في الأخذ
بالهدوء السياسي

لقد كان هنالك امل شبه مؤكد في ضرورة العودة لاحياء شتات يهوذا واسرائيل المزقة إلى وطنهم السابق في فلسطين كقاعدة أساسية في اليهودية الأرثوذكسية . وكانت تلك القاعدة هي التي ألهمت الشتتين اليهود ، وجعلتهم يحتفظون بشخصيتهم المتميزة الخاصة في المجتمع ، طوال فترة تنوف عن ١٧٦٢ سنة — هذا اذا حسبنا من اخضاع ثورة «باركوكابا» سنة ١٣٥ حتى ابتداء الحركة الصهيونية سنة ١٨٩٧ — وكان ستون جيلاً من اليهود المشردين قد ظهروا وانقرضوا خلال هذه الفترة الطويلة من أعصر التاريخ ، ظلوا كلهم يصرون على ترك « يهوى القدير » نفسه يقوم بهذا العمل . وظلوا يرون ان ذلك من عمله هو وبمبادرة منه لا من عمل شعبه المختار ولا بمبادرة أبنائه .

كان هذا ما تأخذ به جميع المدارس اليهودية الأرثوذكسية حيث كانت تعتبر أن مهمة إعادة اليهود الى فلسطين تقع على عاتق

الله . وكان هذا الرأي هو السائد عند جميع اليهود فيما بعد عهد الامبراطور « هدريان » : الأرثوذكس منهم والمتعصبين الدينيين واللامبالين في الدين . وقد كرسته اغودات اسرائيل واتباعها في اعتقادهم بأن أية محاولة للقيام بمجهود انساني بغية محاولة العودة لن تكون أكثر من تجن واغتصاب يتجاوز حدود الدين ولا يقبل به الرب . ويبدو أن أغودات اسرائيل التي تعتنق وجهة النظر هذه كانت أقلية بين اليهود الأرثوذكس حينما ظهرت الصهيونية . أما طائفة « مزراحي » ، والذين اعتنقوا الصهيونية دون القول بأنها تتناقض مع الأرثوذكسية فكانت أكثرية معقولة . وكان اتباع مزراحي يقولون : أن تلك الممارسة — التي بعد هدريان — المتعلقة بضرورة الابتعاد عن اتخاذ أي عمل سياسي لاعادة اليهود إلى أرض الميعاد قد حبّذ انتشارها وضعُ اليهود العام في التاريخ لا وجود ما يسندها سنداً أكيداً في المعتقد اليهودي نفسه . وهكذا ، كانت مزراحي تقف ضد ذلك الرأي المتحجر طوال ١٧٦٢ عاماً ، وتستند الى ما كان يمارسه اليهود ما بين سنتي ١٣٥ بعد الميلاد و٥٣٩ قبل الميلاد ، أي الفترة التي كان يثور فيها اليهود مراراً وتكراراً عندما يدعوهم الى ذلك مواطنوهم المتعاقبون من جماعة «تيوداسي» و«جوداس» بعد أن رحبّوا بقدوم المحرر اللااليهودي « كورش » . وكانت ثوراتهم تهدف إلى تحقيق امل موعود هو إعادة بعث الحياة في مملكة داود الخامدة ، وعن طريق قوة السلاح اليهودي .

هكذا تقول مزراحي ، أما اليهود الارثوذكس الذين ارتدوا

عن معتقدهم وقبلوا صهيونية « هرتزل » فانهم يجادلون بشكل آخر . وجُماع رأيهم ما يلي: نعم، أن سياسة التهدئة والمسالمة، ربما كانت أوفق في الظروف المعاكسة لليهود، إلا أن سياسة البعث والتنشيط لا يمكن أن تكون غير مستحسنة لدى الله .

ويضيفون إلى ذلك قولهم :

« إن هنالك قاعدة أساسية في اليهودية تبيّن بأن الله يعمل في البشر ضمن حدود التاريخ وليس فيما يتعدى ذلك . وهو يجسّد ارادته في شؤون البشر عن طريق تنفيذ مآربه بواسطة وكلاء من البشر يضفي عليهم إلهاماً مقدساً » .

إلاّ انه مهما كان جواب جماعة «مزراحي» لجماعة « أغودات اسرائيل » فقد ظلت هناك صعوبات كثيرة في مركزهم أيضاً .

ولم تكن هذه الصعوبات تنبع من وجهة النظر المتعلقة بأولئك الرجال العسكريين وبناة الامبراطوريات من المسيحيين أو غير اليهود . إذ ان الاعتقاد اليهودي يعتبر جميع هؤلاء مجرد وسائط تاريخية يسيّرها الرب القدير لاسرائيل. وإذا كان هؤلاء المسيحيون قد قاموا بهذا الدور فعلاً فإنهم يكونون قد قاموا به دون وعي منهم للرسالة التي كانوا ينفذونها . فالآشوريون والبابليون والرومان وغيرهم من سادة الحرب ، والذين يمكن لتفوقهم العسكري ان يبرز بروزاً جلياً للعين المستنيرة ليسوا أكثر من التفسير الطبيعي للكوارث والنكبات التي لحقت باسرائيل ويهودا . وقد ظل هؤلاء جميعاً يجهلون الحقيقة البسيطة في أنهم – في نظر الحكماء اليهود – لم يكونوا اكثر من وسائط

غير متعمدة ولا واعية ، يتخذها إله صادق كبير ، ثم يستعملها دون أن يتنازل فيجعلها تطلع على أهدافه ووصاياه . ولمجرد أن يعاقب شعبه المختار على ما اجترحه افراد هذا الشعب من ذنوب ، وبنيّة المغفرة لهم ، وإعادة ذلك الشعب المختار إلى وطنه بعد ان يتم معاناة قدر كاف من العذاب والألم ، وبعد أن تكون ثمار الندامة قد آذنت بالنضج في قلوب اليهود .

لم يكن هنالك غموض فكري أو أدبي من حيث النظر إلى الدور الذي يلعبه واسطة الاله اللامقصود واللاواعي ، ولا من حيث غفران الله لشعبه ثم اعادته إلى داره . وهذا هو الدور الذي القي على عاتق « كورش » الملا يهودي وعلى لسان نبي يهودي .

ولكن ، كيف يتم تفسير ذلك فيما يتعلق بمن عقبه من مجموعة «المسوحين»[1] الذين ادعوا بأن الرب قد مسحهم[2] ثم طالبوا بالولاء من ابناء شعبهم على أساس هذا الزعم ؟

كيف كان يتأتى لمن عاصرهم من اليهود ان يطمئنوا إلى ان هؤلاء « المسوحين » والمعترف بهم كمنفذين لإرادة الرب قد نالوا إلهامه حقاً ؟

---

(١) جمع « مسيح » ، وهو النبي الموعود عند اليهود والذي سيملأ الارض عدلاً بعد ان ملئت جوراً ، كما أنه يعيد « شعب الله » المختار إلى فلسطين ، ويجعلهم سادة على جميع شعوب الارض . (المعرب)

(٢) أي مسحهم بالزيت كناية عن إحلاله بركته عليهم ، واختيارهم ليكونوا واسطة بينه وبين افراد (شعبه المختار) – أي « بني اسرائيل » (المعرب)

وحتى في حال كونهم دعاة مخادعين كذابين ، هـــل يمكن تبرئتهم من كونهم ذوي خيالات جريئة عن المستقبل ؟

هل يمكن اعتبارهم بريئين من معصية أنهم اغتصبوا الناموس فجعلوه في حكمهم الشخصي ؟

اوكم يكن هذا العمل جرأة وقبحة كما انه معصية دينية أيضاً؟

الم يكن استنكار الرب لزاعمهم وعدم موافقته على فعلتهم ظاهراً بارزاً في شدة وعظم النكبات التي جعلتهم يسببونهـــا ويعودون بها على أنفسهم ؟

وعلى اتباعهم الضالين المنحرفين ؟

وإذا كان هذا هو حكم الرب في «الاثيوداسيين والجوداسيين» الذين لم يكونوا يحلمون أبداً بجحود ربهم ، والذين كانت الرغبة الصادقة — وإن كانت في طريق الخطـأ — لتنفيذ مشيئة ذلك الرب عن طريق المبادرة إلى خلق « حكومة مسيحية[1] » كان الرب قد وعدهـا لليهود[2] على ألسنة أنبيائه ، فكيف جاز لليهودي الذي كان يخشى ربه ان يجمع في نفسه بين ذلك وبين الحركة الصهيونية الدنيوية التي ضمت منكرين لوجود الرب بين زعمائها ؟

لقد كان برنامج اولئك الزعمـاء غير موحى به من الرؤى الدينية التي سبقت انبياء عهد المنفى ، وإنما من النسخ الكربونية ،

---

(١) أي بالنسبة إلى مسيح اليهود (المعرب)

(٢) أي لليهود قاطبة .

والطبعات الثانية ، لقومية غربية مسيحية كان من رسلها : الملك لويس الحادي عشر في فرنسا ، والملك هنري السابع في انكلترا ، والمؤلف الفلورانسي المشهور « ميكيافيلي » . فكيف بسايرهم ذلك اليهودي المؤمن بربه !!

كانت هذه الصعوبات اللاهوتيـــة والأدبية في ايديولوجيـة الصهيونية تنضم إلى بشاعة الصهيونية السياسية . وذلك لأنهـا بالابتعاد المرسوم عن المسالة السياسية التي ظلت عـــادة أصيلة مارستها الستون جيلاً من اليهود الذين انتهوا سنة ١٨٩٧ ، هجرت الصهيونية صفة يهودية تقليدية كانت هي التي ابقت اليهود المشردين يهوداً حقيقيين ، وذلك عن طريق الهامهم والايحـاء اليهم بأمـــل[1] لا تنطفي جذوته ، ودون التفكير في معاداة السكان غير اليهود الذين عقبوهم في سكنى فلسطين أو مواجهتهم بحقد يتهددهم بشكل دائم .

طوال تلك الفترة ، كان المشتتون اليهود قانعين مرتضين بأن يتركوا مستقبلهم في فلسطين في يدي الله . وكان المسيحيون والمسلمون الذين يسكنون ارض الميعاد حالياً بوسعهم أن يتسامحوا مع اليهود ويتركوهم لأملهم ، طالما كانت القاعدة[2] اليهودية الأرثوذكسية القـــائلة بأن الرب سيعيد اليهود الى فلسطين ،

---

(١) الامل في العودة الى « ارض الميعاد » . (المعرب)

(٢) والتي هي كالقاعدة المسيحية المشتقة منها ، والقائلة بعود « يسوع » ثانية الى الارض . (المؤلف)

ترافقهـا تلك المسالة السياسية من طرفهم ، فتجعل بالامكان تفسيرهـا بتعابير « ميكيافيلية » أو مصطلحات ماركسية ، على أساس انها اختراع « سيكيولوجي » ليس لجلب « حادث مقدس » يسعى في سبيله جميع البشر ، بـــل لابقاء « الواقع الحاضر » على ما هو ، أي بغية تماسك المجتمع اليهودي أثنـاء تشتيته في العالم [1] . وكان اليهودي الغربي ذو العقلية الدنيوية والناجح في عمله من وجهة مادية يستطيع أن يتقبل على أساس مصلحة مجتمعه الحاضر ، ذلك الاعتقاد التقليدي الذي يتمتع به اليهودي الشرقي ذو التفكير الديني ، على اساس أنه ثقة منه بالله ، وعلى ان واجب الانسان وغايته القصوى لا تتعدى كونها تمجيداً لله والرضى بحكمه الى الأبد .

وتجدر ملاحظة انه يمكن التوفيق بين مخطوطات « اغودات اسرائيل » وآرائها الدينية وبين قلق عرب فلسطين السياسي في نطاق القومية عند اليهودي المتأخر لو أن الصهيونيين قد قرروا أن يفتشوا لهم عن مستقر تقوم فيه دولة احـلامهم الوطنية في

---

(١) وهنالك تفسير أكثر أصالة وأقدر على الاقناع من الناحية السيكولوجية. وهو يقول بأن كلا الاملين ، اليهودي الاصل ، والمسيحي المنبثق منه ، انما يرجعان في أصلهما الى نوع من الخرافات وضعت في قالب تعبير جماعي أضفى عليها صبغة روحية . وهدفها ان تدفع الروح الفردية للانسان فتجعلها تأمل في عودة ما ، وبمساعدة الله ، فتنجو من تيهها الحاضر .

والتيه الحاضر هو هذه الحياة الدنيا التي نتجت عن خطيئة الانسان بعد ان خالف مشيئة ربه فطرده الرب من جنته .

أرض لا تخص أحـداً . وكان هذا الأمر مطروحـاً على بساط البحث والمناقشة العامة في أول فصل من تاريخ الحركة الصهيونية ، وقد جرت مناقشته بكل قوة ، الا أنه لم يتم الوصول إلى نتيجة حاسمة .

ثم ظل الأمر كذلك حتى تم تقديم عرض معقول على يدي الحكومة البريطانية في ١٤ اغسطس عـام ١٩٠٣ . وكان ذلك العرض يقترح ان تكون شرق افريقيا هي مستقر اليهود الجديد . لكن المؤتمر الصهيوني السابع في سنة ١٩٠٥ رفض ذلك العرض ، وحينئذ ألقي « بالفرد » في لعبة التـاريخ ، فخرج هـذا إلى جانب اليهودي القومي . وتم تحديد هدفه على أساس أن فلسطين « لا غيرها » هي قبلة الأمل اليهودية . وكان هذا القرار المميت لم يتم املاؤه مسبقاً[1] من قبل الارثوذكسية اليهودية التقليدية . وبذلك تكون الصهيونية السياسية التي انتقت «صهيون التاريخ» وجعلته هدفاً لها قد اقترفت خطيئة تجاوز الحدود الدينية في نظر اغودات .

لقـد كان تفضيل فلسطين على شرق أفريقيا يتفق مع روح الايديولوجية المسيحية[2] التي خضع لها اليهود الصهيونيون ،

---

(١) لان القرارات اليهودية ، كما يعتقد أصحابهـا ، قد تم اقرارها في التلمود ، وما على الايام الا أن تحققها فقط ، ودون النظر الى الواسطة التي يتخذها الرب للتحقيق . ·

(٢) أي الايديولوجيـة القائمة بين الشعوب المسيحية في أوروبا في ذلك الوقت ، وهي « القومية » . (المعرب)

ذلك لأن نفسية هـذه القومية الغربية الحديثة سلفية عتيقة . وباختيار اليهود فلسطين وطناً قومياً لهم ما بين ١٩٠٣-١٩٠٥، كان الصهيونيون يتصرفون بتأثير الهام الحركة الرومانسية الغربية التي سبق لها أن اسرت الشعوب المسيحية المحيطة بهم[١].

ويستطيع كل متدارس للتاريخ ان يتبيّن الخطر العظيم الذي يمكن أن ينتج من مبدأ تعشّق القديم ومحاولة الرجوع اليه. وقد بدا خطر ذلك المبدأ واضحاً منذ ذلك العهد الذي استطاع فيه دعاة « فكرة القِدَم » أن يردوا الناس اليها. لقد كانت تلك الفكرة خطيرة في السابق، ولا يزال من الخطر نشدانها في الوقت الحاضر ، فكيف بها إذا اعتنقها اعضاء مجتمع هو في حقيقته بقايا متحجّرة من حضارة قديمة ؟ ألا يكون في ذلك مناقضة صارخة مع حقائق الحياة ؟ وهل لا تنفذ تلك المناقضة إلى أبعد من أي طور من أطوار المجتمع بالنسبة إلى الجيل الحالي عند اليهود ؟

إن رجوعاً الى الأصل أوحت به المثل الغربية الحاضرة هو الذي نقل فئة من صهيوني القرن العشرين من المشتتين اليهود وعاد بهم إلى أهداف عصر « اليشع » وعقليته. وهو الذي خلق ما تلا ذلك من الاستعاضة بالأمل اليهودي التقليدي في عودة

---

(١) وتعلن الصهيونية انها حركة لا هم لها الا الحصول على فلسطين وحدها ، وبصورة ودية .. ولكن هذا يعتبر تحدياً للمنطق العام ، كما انه خضوع لغريزة عميقة متأصلة في نفوس الصهيونيين .

فعليـة إلى فلسطين بمبادرة من الرب ، وعن طريق مسيح ملهم من السماء ، بحركة صهيونية تعمـل جاهدة لتأسيس دولة قومية يهودية في فلسطين ، بمبادرة من اليهود أنفسهم ، وعن طريـق اجراءات سياسية وأعمال عسكرية أيضاً . وقـد أهب ذلك خيالَ اليهود فتفتقوا عن طاقة كبيرة للعمل تشبه تلك الطاقـة الهائلة التي تحملها استعاضة المسيحيين عن الأمل التقليدي بعودة يسوع الفعلية في الألف الثـاني بعد الميلاد ، بالحركة الشيوعية الحاضرة التي تعمل جـاهدة لتأسيس نظام دنيوي جديد تقوم بنشره عن طريق الثورة العالمية .

أثر الحرب العالمية الاولى في مصير فلسطين

كانت النكبات الفظيعة التي نزلت بيهود وسط أوروبا ، وبعرب فلسطين في القرن العشرين بعد الميلاد متلازمة حقاً ، يتضمنها ذلك القرار الذي اتخذته فئة من يهود الغرب في القرن العشرين عندما تبنوا برنامج « التفريب الجماعي » على قواعد سبق لها ان اطّلعت الافكار القومية في الغرب . إلا أن بروز حركة صهيونية يكون هدفها تأسيس دولة قومية يهودية في فلسطين لم يكن في مقدوره توليد هذه النتائج المرعبة النكباء لو لم يقع المجتمع المسيحي الغربي فريسة لحروب عالمية متوالية ، لم يكن لا العرب ولا اليهود مسؤولين عنها . لقد مهدت لها القوميات الغير السليمة لشعوب الغرب ، فكان جزاء على تلك الشعوب أن تذوق مرارتها .

وكان نشوب الحرب العالمية الأولى قد قدح الشرارة المحلية التي اشعلت النار المخربة في قطار من البارود . وانتهت الحرب بانتصار أحد الفريقين ، وتفكك الإمبراطورية العثمانية .

وكان ذلك التفكك العثماني في آسيا هو الحلقة الأولى في سلسلة ما عقب ذلك من أحداث . فطوال الحكم العثماني بقي السكان العرب في فلسطين مطمئنين الى عدم وقوعهم ضحية

للطموح الصهيوني . وشكراً لتلك الحقيقة الواقعة في كون الاكثرية المسلمة من عرب فلسطين كانت جزءاً من مجتمع اسلامي مسيطر ، ضمنه امبراطورية واحدة . نعم ، لقد كان بقاؤها في آسيا حتى ذلك الوقت قد تم بفعل التلاعب بين القوة الجماعية للمسلمين العثمانيين[1] من جهة وميزان التوازن الدولي في القوة من جهة اخرى ، ولكنه ظل موجوداً على كل حال .

وقد ظل اليهود احراراً في الحج إلى فلسطين والاقامة فيها منذ ذلك العهد الذي انتقل فيه الاشراف السياسي في فلسطين من أيدي المسيحيين إلى أيدي المسلمين نتيجة للفتح الإسلامي العربي البدائي في القرن السابع بعد الميلاد . كما سمحت الحكومة العثمانية للصهيونيين سنة ١٨٨٢ أن ينشئوا لأنفسهم مستعمرات قليلة في الريف الفلسطيني على شرط ألا تكون هذه المستعمرات مجلبة للاستفزاز أو إثارة حنق سكان البلاد العرب . وقد زال هذا الضمان العثماني لحقوق ومصالح عرب فلسطين على أثر انهيار النظام العثماني الامبراطوري بعد نهاية الحرب الكبرى ، وكان ما سبق ذلك من دك عرش النظام الامبراطوري لآل رومانوف في روسيا — وكسابقه نتيجة للهزيمة في الحرب الاولى — قد

---

(١) ولقد كلف ذلك مسلمي فلسطين ثمناً عالياً ، اذ كانوا مجبرين على الاشتراك في الجيش العثماني . وكان هذا الجيش متأخراً تبلغ نسبة الوفيات بين جنوده بسبب الجوع والمرض أكثر منها بسبب النشاطات الحربية .

ولكن الفلسطينيين كانوا يودون لو ظلوا يدفعون ذلك لقاء ضمان بقائهم في وطنهم .

أزال أيضاً ضماناً من ضمانات عرب فلسطين . ذلك لأنه حتى سنة ١٩١٤ ظل الشعب الروسي يمارس العادة المسيحية التقليدية [١] بإعداد ضخمة ، مع انها كانت قد غدت عتيقة مهجورة منذ زمن طويل في الغرب . وكانت الحكومة الامبراطورية الروسية – التي ميزت نفسها « باللاسامية » لدى الاكثرية المسيحية الغربية ، أو نصف الغربية ، من سكان المملكة المتحدة « بولندا – ليتفيا » منذ دخلت تلك المملكة ضمن منطقة نفوذها – قد ظلت ترفض أي ميل من جانب حلفائها الغربيين لمنح موافقتهم على مطامح الصهيونية في فلسطين.

وكان سبب الرفض هو أن تحويل فلسطين إلى وطن قومي لليهود سيدنس الأرض المقدسة التي لا زالت تعني للروس ما كانت تعنيه للمسيحيين الآخرين سابقاً . وانه لما يسترعي النظر ان القيصرية قد سقطت في الثاني عشر من آذار سنة ١٩١٧ ثم اعطي وعد بلفور في الثاني من تشرين الثاني في ذلك العام !!

وهنالك عامل سياسي آخر جلبته الحرب العالمية الاولى إلى الميدان ، وهو المنافسة بين دعاة الحرب على دغدغة عواطف اليهود وكسب رضاهم . فقد كان كسب معاضدة اليهود – وأكثر من ذلك تجنب عداوتهم – هدفاً آنياً لكلا الجانبين المتصارعين . إذ أنه مع ان التحرير السيكولوجي المشتتين اليهود في الغرب كان لا يزال مقصراً متخلفاً عن الركب في ذلك الحين ، فان تحريرهم

---

(١) الحج الى بيت المقدس . (المعرب)

الاقتصادي والسياسي كان قد قطع شوطاً بعيداً يسمح لهم بأن يكونوا ذوي وزن مادي ، وربما حـــاسم ، في ميزان القوى العالمية المضطرب .

كان اليهود قداستطاعوا أن يصبحوا قوة لها قدرها في الحياة السياسية الحليّة دول غرب أوروبا ووسطها . أما في الولايات المتحدة فقد بلغوا درجة أكبر من تلك بكثير . وكانت مشاعر اليهود الاميركيين بارزة إلى درجة كبيرة يحسب حسابهـا دعاة الحرب الأوروبيون الذين أخـذوا يدركون ان كلمة الولايات المتحـدة لا بدّ وأن تكون هي الكلمة الاخيرة فيما ينشب من الصراع في أوروبا . كما أخذوا يعون أن تلك الكلمة الأخيرة لا يمكن إلا أن تتأثر كثيراً بآراء ورغبـات المواطنين الاميركيين اليهود . وفي خلال الستة والثلاثين عامـاً المنتهية بـ سنة ١٩١٧ كان اليهود قد غدوا ينظرون ، وبحق ، إلى روسيا على أنها العدو رقم ١ لليهودية . وقد وقفت المانيا ، شأنها شأن خصومها الحلفاء — والتي حررت اسلحتهم المنتصرة قسماً كبيراً من «المنطقة المحرمة» من الحكم اللاسامي في روسيا — محـاولة كسب عواطف اليهود المنتشرين في مختلف أقطار العالم . فبعد أن اضطر الجيش الألماني عام ١٩١٥ خصمه الروسي إلى التقهقر إلى خطٍ هو الحد السيـاسي الروسي البولندي لسنة ١٧٩٣ ، قدّم ضباط هيئة اركان حرب الجيش الالماني للصحفيين اليهود الاميركيين فرصة ثمينة جداً . لقد سمحوا لهم أن يروا بأم اعينهم كيف ان الروس قد وجـــدوا متنفساً لغضبهم من جراء الهزيمـة ففتكوا بالسكان العزّل اليهود

وذبحوهم بما في ذلك الاطفال والنساء الذين كانوا يقطنون في المنطقة التي تم الاستيلاء عليها . اما من جانب الدول الاوروبية الغربية والولايات المتحدة — منذ أن اصبحت شريكتهم في النزاع — فقد كان الأمر يقتضي عجلة طارئة . كانت هذه الدول تريد أن تلعب بورقة من نفس قيمة الورقة التي احرزتها المانيا حين فتحت « المنطقة المحرمة » .

وجاءت الورقة .. وكانت فتح بريطانيا لفلسطين .. فلعبت بها دول الحلفاء على عجل . وذلك لأن رؤساء تلك الدول ما كانوا يأملون في ابقاء شريكتهم المعادية للسامية ، « روسيا » ، خارج نطاق اللعبة .

وهكذا غدا واضحاً أنه ليس مما يثير العجب والدهشة ان يتم اعلان تصريح الورد « بلفور » في نفس اللحظة التي كانت آمال الحلفاء في الاستفادة من قوة شريكتهم الحربية «روسيا» قد تبخرت وذهبت أدراج الرياح .

مسؤولية بريطانيا في نكبة فلسطين

من الواضح أن الدول الغربية قد أعمتها شهوة النصر الذي كانت تسعى اليه ، فلم تتخذ أي حساب للمستقبل فيما بعد ذلك النصر . ويعود السبب في ذلك إلى ان الحرب التي كانت تخوضها هذه الدول كانت حرباً نتيجتها الحياة أو الموت. كانت الحرب لا تزال تستعر نارها ، وكان الحلفاء يطلبون النصر بكل ثمن ، فأعطوا العرب وعوداً تدفعهم إلى الثورة على الاتراك ، كما أعطوا اليهود وعوداً تضمن مساعدتهم . هكذا وقع ذلك التناقض في وعود الحلفاء بشأن فلسطين . وكانت شهوة النصر وشدة الخطر هي الدافع الأول لذلك . كما انها هي التي أعمتهم عن التبصر في واجباتهم التي كانت لا بد وان تتلو تلك الحرب الضروس . وهنالك من يعتبر ظروفهم الحرجة مما يخفف اللوم عن عاتقهم قليلاً .

وانتهت الحرب . وعقبتها فترة السلام التي امتدت حتى الحرب العالمية الثانية .

وبانتهاء الحرب الأولى عهد إلى السلطة المحتلة — بريطانيا — أن تحاول علاج ذلك الموقف الكلامي المتناقض الذي خلفه الحلفاء في فلسطين بتأثير ضغط الحرب وظروفها. وكذلك عُهد

اليها ان تحاول تصفية الموقف في أقصر وقت ممكن ، وبأقل ظلم يلحق الطرفين « العرب واليهود » المتناقضي المصالح والوعود . هكذا كانت بريطانيا هي القوة الغربية التي تحملت نصيب الأسد من المسؤولية المترتبة على فشل الحرب فيما بينهما[1] ، إذ أنها كقوة محتلة اولاً ثم كسلطة منتدبة فيما بعد ظلت تصرّف الشؤون الادارية في فلسطين من سنة ١٩١٧ إلى سنة ١٩٤٨ .

وفي خلال هذه الفترة الحرجة[2] كان السلوك البريطاني — سواء في ذلك جميع الأحزاب البريطانية والوزراء الذين تعاقبوا على الحكم — سلوكاً يرغب رغبة أكيدة في العمى ولا يريد أن يبصر المشكلة في فلسطين . كانوا يتجاهلون انها بلد فتحوها واقصوا الاحتلال العثماني عنها . كما يتجاهلون ان الحكم العثماني كان مسرحاً تظل الثورات تنفجر بين شعوبه المختلطة فتنتج من ذلك آلام كثيرة تزهق فيها الارواح . انهم لم يذكروا ابادة الاقلية المسلحة على يدي الروم الأرثوذكس المسيحيين في بلاد اليونان سنة ١٨٢١ . وإذا فرضنا ان اولئك الساسة كانوا يجهلون التاريخ العثماني في القرن التاسع عشر ، فهل كان بوسعهم ان لا يدركوا المصير الذي جعل بالأقليمة الارمنية في اناضوليا سنة ١٩١٥ ؟ لقد عجزت تلك الحادثة ، مع انها في رقعة مجاورة من الممتلكات العثمانية ، ان تبعد البريطانيين من البقاء في فلسطين

---

(١) بين العرب واليهود (العرب)

(٢) ٣٠ سنة (العرب)

على أمل ان يخلقوا دولة واحدة من مجموعة متنافرة من المركبات القومية التي لا يمكن التوفيق فيما بينها . ووقعت حادثة اخرى من النوع ذاته .. وصار من الواجب على المؤرخ أن يقول : ان المصير الذي نزل بالاقلية اليونانية في اناضوليا سنة ١٩٢٢ كان ينبغي ان يفتح عيونهم (البريطانيين) لاعادة النظر في تصريح بلفور قبل ان يغدو الوقت متأخراً . ثم تبع ذلك نذير ثالث سنة ١٩٢٢ ، وفي فلسطين نفسها هذه المرة . أما كان ذلك يشير إلى الانفجار الذي سيعقبه بشكل حتمي ؟ ومع هذا ، وبالرغم من جميع هذه الدروس الموضوعية التي تبعث على الرعب ، ظلت السياسة البريطانية تتكالب على ابقاء فلسطين متجهة نحو كارثة ظاهرة . وكان الوضع المحلي فيها يتردى من سيء إلى اسوأ ، حتى غدا البريطانيون عاجزين عن معالجته .

وتسلم النازيون الحكم في المانيا فزادت المشكلة استعصاء . ثم كان ما كان من اضطهاد النازيين اللاأنساني لليهود ، وتوسع معسكرات ابادتهم في المانيا وباقي مناطق اوروبا الوسطى بعد الحرب العالمية الثانية عـــام ١٩٣٩ . وقد زاد ذلك في تعقيد المشكلة أيضاً .

والواقع انه لم تكن في ذهن الساسة البريطانيين على الاطلاق ، ومنذ بداية الانتداب إلى نهايته ، أية خطة أو برنامج عملي يؤدي إلى استقرار الوضع القلق المتفجر في فلسطين أو ينشد ذلـك ، مع ان بريطانيا هي التي خلقت ذلك ، عن قصد وسابق تصميم . ولم تحاول الحكومة البريطانية خلق نوع من الاتزان بين النسبة

العددية للعناصر العربية واليهودية في فلسطين ، إلى أن أصبحت الاقلية اليهودية كبيرة نسبياً ، وبتسهيل الحكومة البريطانية نفسها — تبلغ ثلث مجموع السكان في البلاد . وحينئذٍ لم تبق هنالك أية فرصة لبقاء تلك الأقلية أقلية في دولة ذات قوميتين. ولم يعد هنالك مكان لوجود مثل هذه الدولة ، حتى لو تم تشكيلها على الورق. لقد غدا مستحيلاً على تلك الدولة ان تقوم على أساس دستور غربي تخضع الاقلية فيه لحكم الأغلبية. ومع ان من يبررون تصرفات سلطات الانتداب الحاكمة ربما يقدمون براهين تشريعية مختلفة على ان الوعود البريطانية للعرب واليهود لم تكن متناقضة بشكل رسمي ، فان ذلك لن يجدي من الأمر شيئاً . كان هنالك طائفتان ، ولكل طائفة منهما آمال تناقض رفيقتها الأخرى. وقد غذّت الوعود[1] البريطانية آمال الاثنين، فهل يجوز ان نعتبر آمال أي من الطائفتين غير مشروعة ؟ ان ذلك لعسير جداً . .

وهذا صرح به الناطق بلسان الحكومة البريطانية ، أو

---

(١) في التحقيق الذي قدمته اللجنة الملكية البريطانية ، والمحفوظ ضمن وثائق البرلمان البريطاني لسنة ١٩٣٦ — ١٩٣٧ ، لاحظت اللجنة التي عهد اليها بالتحقيق أن : (هنالك غموضاً كبيراً في التعبيرات المستعملة في صك الانتداب ، مثل البند الوارد فيه والقائل: « وطن قومي للشعب اليهودي ».). و « لقد وجدنا في غموضه وفي عدم استقرار السياسة المطبقة على أهداف معينة سبباً رئيسياً يظل يخلق القلق والعداوة التي تنشب بين العرب واليهود في البلاد . »

اعترفت بـــه الوكالة اليهودية خلال المراحل الأولى من نظام الانتداب، فقد كان من المستحيل من الوجهة « السيكيولوجية » ان تَعد بريطانيا بانشاء وطن قومي لليهود في فلسطين للشعب اليهودي — وعلى الخصوص حين تشمل تلك الوعود تسهيل الهجرة اليهودية وتشجيع انشاء مستعمرات يقيمها اليهود في البلاد — بدون تشجيع الصهيونيين في ان يأملوا في إقامة وطن قومي لهم في ذلك القطر ، غير مراعين ، لا دقة تفسير تصريح « بلفور »، ولا شروط صك الانتداب الذي تعهـد بأن يحافظ على حقوق ومركز الطوائف الأخرى من سكان فلسطين ولا يُلحق بها اذى.

وفي نفس الوقت يكون من المستحيل الوعد بتطوير مؤسسات حكم ذاتي[1] في بلاد يكون فيها العرب هم العنصر الذي يشكل الاكثرية العددية من السكان — حـــين تم وضع نصوص وثيقة الانتداب[2]، بدون تشجيع العرب الفلسطينيين على الأمـل في

---

(١) هذا هو البند الثاني من صك الانتداب على فلسطين .

(٢) عهد الحلفاء لبريطانيا بالانتداب على فلسطين في ٢٥ نيسان سنة ١٩٢٠ وفي مؤتمر سان ريمو .
وهذا النص الذي أقر بذلك التاريخ شرعياً في ٢٤ يوليو سنة ١٩٢٢ وبدىء بتطبيق الانتداب رسمياً في ٢٩ ايلول سنة ١٩٢٣ .
ويذكر الاحصاء الذي اجرته بريطانيا (٢٣ اكتوبر ١٩٢٢) ما يلي :
عرب : ٦٧١٠٠٩٨ ، ويشمـــل ذلك الشيعة والدروز والمسيحيين والسنيين .
يهود : ٨٣٠٧٩٤ =

انشاء دولة قومية لهم في فلسطين أيضاً ، ودون النظر لا إلى الانتداب ولا إلى تصريح بلفور الذي يتطلب تأسيس وطن قومي لليهود .

كان الدرس الموضوعي الذي يمكن استخلاصه من العلاقات التركية — قبرصية ، والتركية — الأرمنية خلال ذلك القرن ، والذي بلغ ذروته في تكبتي سنة ١٩١٥ و ١٩٢٢ على التوالي ، يدحض مقدماً اعتقاد بريطانيا في ان نظام الانتداب سيغدو قادراً بشكل عجائبي على ان يبقى لها شرفها بأن يخلق ، في يوم ما ، دولة فلسطينية ذات قومية ثنائية : عربية يهودية [1] .

وقد وجد السير « ونستون تشرشل » وزير المستعمرات آنئذ ، وفي مذكرة مؤرخة في الثالث من يونيو سنة ١٩٢٢ ، لديه الجرأة الكافية لأن يربط نفسه بالرأي القائل بأن تصريح بلفور لم يكن : « يتضمن أي شيء من شأنه ان يبعث الذعر والقلق في نفوس العرب في فلسطين أو الخيبة عند اليهود . »

أما الحقيقة المرة فكانت هي :

ان بريطانيا العظمى باعطائها تصريح بلفور ، ثم تحمّل

آخرون ٢٠٢٩٠ ، ويشمل ذلك سامريين وبهائيين وهندرساً وسيخاً .
وهكذا يكون مجموع السكان هو : ٧٥٧،١٨٢ .
وبذلك يكون العرب يشكلون ٩٠٪ من السكان ، مع ان وعد بلفور وصك الانتداب يعتبرانهم « الاقليات الاخرى » .

(١) حتى السابع عشر من شهر ايار سنة ١٩٣٩ ظلت الحكومة البريطانية تعلن أنها : « ستؤمن تطوير حكم ذاتي في فلسطين » وذلك بصرف النظر عن=

عبء الانتداب الذي تجسدت في صكه نصوص ذلك التصريح كانت تفرض حق واحد أو آخر من المجتمعين اللذين يتعلق بهما الأمر، وتحكم عليه أن يخضع لنكبة رهيبة تنزل به في المستقبل، وفي نفس اللحظة التي كانت تتعهد فيها بأن تجعل نفسها مسؤولة « عن حفظ ورعاية الحقوق المدنية والدينية لجميع سكان فلسطين دون النظر إلى عرقهم أو ديانتهم » .

وكان بالمستطاع التنبؤ بذلك بيقين على ضوء تلك الحوادث الموحية التي وقعت في الممتلكات العثمانية القريبة بعد سنة ١٩١٥. أما بعد سنة ١٩٢٥ ، فقد انقلب ذلك التنبؤ إلى جزم قطعي .

وهكذا غدا شبه محتوم على نظام الانتداب بفلسطين ان ينتهي اما إلى فناء أو طرد أو اخضاع مئات الالوف من الأنفس البشرية . وكانت القضية الوحيدة التي يمكن بحثها والمناقشة فيها هي ما إذا كان هؤلاء الضحايا، من الرجال والنساء والاطفال الذين سبق وتقرر مصيرهم، سيكونون من العرب أو اليهود . وكان الاستنكار

التزاماتهـــا المترتبة على صك الانتداب . إلا أن الموظفين البريطانيين وجدوا أنفسهم مضطرين إن الاعتراف – فقرة ٨ ، تقرير ١٩٣٩ بأنهم مع رغبتهم في أن « يروا فلسطين بلداً مستقلاً موحداً يتعـــايش فيه العرب واليهود » ويقتسمان السلطة بشكل يحفظ مصالح كل منهما » يجدون أنفسهم « عاجزين عن استشفاف الصيغ الدستورية الدقيقة التي يجب الاخذ بمقتضاها في حكومة فلسطين هذه » – (فقرة ١٠ بند ه) ولذلك لم يتقدموا بأي اقتراح يتعلق بوضع أي نظام تشريعي للبلاد .

الذي أطلقه العرب في سنة ١٩٤٨ — ١٩٤٩ جواباً على مذكرة تشرشل سنة ١٩٢٢ هو النقيض المحتوم لتلك المذكرة العجيبة. ولم يكن هنالك مثار شك في ان الثلاثمئة الف يهودي المهاجر الذين تم جلبهم وادخالهم إلى فلسطين خلال الثلاثين سنة من حكم الانتداب، قد دخلوا فلسطين بقوة بريطانيا وسلطتها، وضد رغبات العرب الذين كانوا مقتنعين تماماً بأن اولئك المهاجرين قد جاؤوا ليخنقوهم[1] وليذبحوا اظفارهم في حلاقيمهم. والحق،

---

(١) تشهد الوثائق الرسمية المحفوظة في مكتبة البرلمان البريطاني انه قد تم ادخال ٣٠٠٠٠٠٠ يهودي إلى فلسطين في الفترة الواقعة بين مذكرة تشرشل في ٣ حزيران سنة ١٩٢٢، و ١٧ ايار من سنة ١٩٣٩، وتعترف بأن عدد اليهود قد غدا في التاريخ الأخير ٤٥٠٠٠٠٠ شخصاً أي ما يعادل ثلث سكان البلاد تقريباً.

أما جداول احصاءات حكومة فلسطين الرسمية لسنة ١٩٤٩، والمنشورة في القدس سنة ١٩٤٤ فتقول:

اليهود سنة ١٩٢٢ = ٨٣٠٧٩٠

اليهود سنة ١٩٤٢ = ٤٨٤٠٤٠٨

وتكون الزيادة = ٤٠٠٠٤١٨

وهذا يعادل ٢٩٠٩٪ من السكان الاجماليين

والزيادة اليهودية الطبيعية بفعل التناسل = ٩٤٠٨١٥

والزيادة بفعل الهجرة = ٣٥٠٠٨٠١

وزيادة المسلمين عامة = ٤٠٦٠١١٥

منهم زيادة طبيعية = ٣٨٦٠١٠٠

وزيادة من مصادر اخرى = ٢٠٠٠١٥

ومن زيادة المصادر الاخرى كان ٩٧٠٠ من المناطق التي ضمت إلى فلسطين من لبنان وسوريا سنة ١٩٢٣.

ان الحوادث التي تلت قد أثبتت ان عمل البريطانيين كان في حقيقته يعني القضاء على عرب فلسطين ، إن آجلا أو عاجلا . وكان هذا تحدياً لنصوص التعهد الصريحة التي يتضمنها كل من تصريح بلفور وصك الانتداب ، والتي تقول بأنه : لا شيء يجب أن يمس الحقوق الدينية والمدنية « للطوائف الأخرى » غير اليهودية التي تقطن فلسطين .

مسؤولية المانيا والولايات المتحدة في نكبة فلسطين

كانت النكبة المقدرة الحلول بفلسطين سنة ١٩٤٨ قد سبقها ومهد لها الطريق ثلاثة أحداث .

الأول منها : نهوض وارتقاء الجالية اليهودية الكبيرة في الولايات المتحدة ، كنتيجة لتدفق اليهود من داخل المنطقة المحرمة في روسيا ما بعد سنة ١٨٨١ ، إلى درجة كبيرة من الازدهار الاقتصادي والنفوذ السياسي في الحياة الأميركية ، مما جعل أصواتهم قوة ذات شأن في حلبة السياسة الأميركية الداخلية بحيث أصبح كل من جهازي الحزبين الرئيسيين في أميركا يتنافس مع خصمه على كسب ودها . ولهذا السبب لم يكن أي من الحزبين يستطيع ان يتجاهل وزنها في المعركة .

وكان الحادث الثاني هو : إبادة الاقلية اليهودية في أوروبا الوسطى على أيدي الألمان المسيحيين ما بين سنتي ١٩٣٣ ـ ١٩٤٥ .

أما العامل الثالث ، فكان نشوب الحرب الباردة بين الاتحاد السوفياتي والولايات المتحدة ، بعد القضاء على الفاشية عن طريق المجهودات المتضافرة لكل من الديمقراطية البرلمانية الغربية ، والشيوعية في الحرب العالمية الثانية . ولم يكن لأي من هذه

الوقائع الثلاث أية علاقة ذاتية بما نتج بين العرب واليهود في فلسطين . إلا ان احداث الفترة المتوسطة مـا بين هذه الوقائع كانت ذات اثر حاسم في مجرى تلك المأساة مع كونه خارجياً[1] عنهـا .

ولم يكن هنالك عدل ولا لياقة في تقاضي العرب الفلسطينيين التعويض اللازم لليهود الأوروبيين عن الجرائم التي اقترفهـا المسيحيون الغربيون معهم . كانت العدالة تتطلب ان يتم استيداد ذلك الدين ليهود أواسط أوروبا الذين آذاهم حب الاجرام في قومية غربية ، عن طريق المنتصرين على المانيا المهزومة . وكانت اللياقة تشير إلى ذلك الاتجاه الذي تسير فيه العدالة أيضاً . إذ ان الدول الغربية المنتصرة كانت تحوز الامكانيات الكافية — التي تعجز عنهـا مصادر الثروة في فلسطين — لامتصاص من بقي حيـاً من يهود أوروبا دون الاخلال باتوازن الاجتماعي المحلي في أي دولة منها . وكان حقاً مـا فعلته الجمعية العامة لمنظمة هيئة الأمم المتحدة في ١٥ كانون الثاني سنة ١٩٤٦ حين حثّت كلاً من الاعضاء المنتسبين اليها ان يستقبلوا نصيبهم العادل من المشردين الذين لا وطن لهم ، ويسهلوا

---

(١) كان ظهور الحركة الاشتراكية القومية في المانيا وطبيعتها ، شأنه شأن منح الانتداب لبريطانيا على فلسطين ، ناتجين من أصل واحد ، هو اخفاق التحالف الرباعي في الحرب العالمية الاولى .
وليس هنالك ما يربط الحدثين غير هذا الرابط .

لهم اقامة دائمة في بلدانهم بأسرع وقت ممكن[1] . ولكن هذا القرار لم يلق ترحيباً لا عند الأقلية اليهودية في الولايات المتحدة ولا عند الصهيونيين . ويجوز أن يكون اليهود الاميركيون قد انطلقوا في عدم ترحيبهم به من نقطة ضمان اعتبارهم الأدبي وخشية أن تورثهم زيادة عددهم في الولايات المتحدة ، ولو زيادة معتدلة ، حقد مواطنيهم المسيحيين الشديدي الحساسية . اما واضعو خطط السياسة الصهيونية فقد انطلقوا في عدم الترحيب لذلك القرار من نقطة تصميمهم المنيد على اتخـــاذ آلام يهود اوروبا عاملاً مساعداً في تقوية وتدعيم الأغراض الصهيونيـة السياسية في فلسطين. ومهما كان ذلك المزيج من الدوافع اليهودية غريباً ، فان اليهود قد بيّنوا بوضوح ، ان قلوبهم تحنّ إلى جعل « وطن قومي» لهم في فلسطين يكون ملجأ تقصده البقية الباقية من يهود اوروبا . ومن هـــذه الزاوية نظر كل من الحزبين : الديمقراطي والجمهوري في أميركا ، وكذلك الاتحاد السوفياتي والولايات المتحدة في هيئة الأمم المتحدة. وجعل الاربعة يحاولون ان ينافس الواحد منهم الآخر في معاضدة اليهود باظهار حماس أكبر لتحقيق المطامح اليهودية الجديدة ، تماماً كما تنافست بريطانيا والمانيا على كسب التأييد اليهودي من قبل ، وفي مثل تلك السنوات الحرجة ما بين ١٩١٥ — ١٩١٧ ب. م.

---

(١) تبنت منظمة هيئة الامم المتحدة هذا القرار في جمعيتها العامة التي انعقدت دورتها ما بين ٢٣ تشرين الاول و ١٥ كانون الاول سنة ١٩٤٦ ، وهو رقم ٦٢ فقرة . ي .

وكانت الواقعية السياسية في هذه المنافسة المزدوجة الشقين، والتي هي من أجل كسب تأييد اليهود في كلتا الحالتين – الصراع الدولي بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي ، والصراع المحلي بين الحزب الديموقراطي والجمهوري في أميركا – هي الدافع الوحيد الذي حرّك اميركا لأن تزيح عن كاهل بريطانيا أكثر ما تستطيع من الجرائم الدموية في مأساة فلسطين ، وبالقدر الذي تسمح به تلك الساعة الأخيرة من عمر الانتداب . لقد وضعت اميركا على رأسها جميع تلك الجرائم ، ولم تكتف بذلك بل كان المنحى الذي سلكته في معالجة القضية الفلسطينية على وجه العموم أقل «ميكيافيلية» منه «دون كيشوتية»[1] .

وبينما كان الضحايا العرب لمأساة فلسطين غير واضحي المعالم في نظر العين الاميركية ، كان الضحايا اليهود في مأساة أوروبا قد تم توضيح قضيتهم في اذهان واخيلة الاميركيين المسيحيين بفعل سيطرة الاقلية اليهودية ، في الولايات المتحدة ، والتي لا يتمتع العرب بمثلها هناك . وكان ذلك الشرح الحي الذي ادى إلى تحقق ضمائر الاميركيين المسيحيين من الآلام التي نزلت بيهود أوروبا قد استفاد من عاملين : الاول أن تلك الآلام قد سببها

---

(١) ميكيافلي صاحب مبدأ «الغاية تبرر الواسطة»

دون كيشوت «فارس مجنون يقاتل اجنحة طواحين الهواء» «سرفانتيس»

ويريد المؤلف ان يقول «ان ما يخفف في جريمة اميركا أنها صادرة عن نوع من الحق والجنون» . ونحن نتساءل : هل يخفف جنون اميركا من آلام عرب فلسطين يا ترى ؟ (المعرب)

اخوة مسيحيون في المانيا ، وكان هذا عاملاً رئيسياً ، والثاني هو ان الاميركيين المسيحيين كانوا يحسون بعدم الارتياح — وان كانوا غير واعين — نحو تيار ضئيل من اللاسامية في قلوبهم ، وهذا عامل ثانوي .

والحقيقة ، أنه يمكن حمل تلك الشكوك الشخصية لدى الرئيس « ترومان » بخصوص عدم ارتياح الذهنية الاميركية نحو ذلك التيار الضئيل ، محملا معقولاً يجوز به تفسير تدخلات البيت الأبيض في المشكلة الفلسطينية الشائكة على شكل يجعل تلك التدخلات مبعثاً للسخرية لو لم تكن تصدر جزئياً من ذهنية بريئة . كان شوق ذلك السياسي الميسوري[1] الديني في ان يجمع بين الانصاف والاحسان عن طريق مساعدة اليهود المظلومين لا يجد ما يعيقه من وعي أو إدراك سليم يوضح لصاحبه أنه لا يفعل أكثر من ان ينقل عبء الالم والعذاب فيضعه على كاهل العرب . وان جولات المستر ترومان في ميدان فلسطين البائسة لتذكر القارىء برواية ملهاة مأساة يعزو فيها المؤلف إلى الأخ « جوني بر » ، ذي القلب الطيب السليم ، أنه تأثر بما بلغه عن آلام أحد المرضى فاسرع وسكينه في يده إلى الغابة . وهناك وجد قطيعاً من الخنازير المسالمة ، فأمسك احدها وقطع بسكينه حلقومه بينما كان الخنزير يقفز في الهواء من الألم . وقد خلفه الأخ المبارك

---

(١) من ولاية ميسوري ، وهي ولاية محافظة . (المعرب)

في عذاب شديد ، وأسرع إلى ذلك المريض كي يساعد في تخفيف آلامه بتقديم طبق من الطعام تطلبه نفسه .

ولم يهتم ذلك الاخ الطيب إلى انه ترك الحيوان المسكين يتشنج من ألم الاحتضار .. ولم يصبر لحظة واحدة ليفكر فيما اذا كان الخنزير ، وهو الضحية البريئة ، هو من ملكية المريض أو من خنازيره هو . كان يريد أن يفعل ما ظنه احساناً .. ولم يفطن إلى ان احسانه على حساب شر آخر . ومن الخير أن نضيف إلى هذه القصة ان الشكل الذي كرر به الامير كان وقوعها يحتوي على دور آخر وتلميح جديد لم يورده المؤلف في اصل النص الايطالي للقصة . ففي رواية «فيوريتي» لم يكن هنالك أية اشارة إلى ان الآلام التي عانتها ضحية رجل تقي بدافع الاحسان في قلبه قد اثارت أية شفقة انسانية في قلب غيره . إذ انه لما بلغ الخبر مسامع صاحب ذلك الحيوان المظلوم ذبحه ، لا اهتماماً بتخفيف آلام ذلك المخلوق بل بغية التقرب إلى الرب بأن يجعله وليمة للأخ « جوني بر » وابناء طائفته الآخرين ... هذا بينما نجد في السجلات السنوية لمنظمة هيئة الأمم المتحدة ما يشهد بأن الولايات المتحدة بادرت إلى اغاثة الـ ٦٨٤٠٠٠ عربي مشرد في نكبتهم بتقديم نصف المبالغ التي قدرها الخبراء ضرورية لأغراض توفير الاسعافات الأولية لأولئك الضحايا من البشر ، الذين ذهبوا ضحية الطبع الانكلو — سكسوني العجيب !!

الظاهر والباطن

كان الوضع الذي نتج في فلسطين مثقلاً بالمتناقضات الجغرافية والتاريخيـة والسيكيولوجية . فرقعة الأرض الواقعة غرب نهر الأردن من الأراضي الفلسطينية ، والتي لم تضمها دولة اسرائيل الصهيونية حتى تاريخ سنة ١٩٤٩ ، أي عندما علّقت حوادث فلسطين ، هي ارض «ابراهيم» الجبليّة . وهي الرقعة التاريخية التي ثبت فيها اسرائيل اقدامه في فلسطين ثم توارثها السامريون فيما بعد . امـا الرقعة الرئيسية التي تقوم عليها دولة اسرائيل الصهيونية الحاليـة فهي ارض الفلسطينيين في «شيفالا» . ولم يسبق ان استعمر هذه الأرض اي من شعب اسرائيل أو يهوذا على الاطـلاق . كما انها لم تتحد سياسياً لا مع ابراهيم ولا مع مملكة يهوذا طوال الثلاثـة عشر قرناً التي ظل الفلسطينيون والاسرائيليون يعيشون فيهـا جنباً إلى جنب ، الا في فترات قصيرة متقطعة كانت ضمن الفترات التي ساد فيها حكم الفلسطينيين على اسرائيل أو حكم اليهود على ارض الفلسطينيين . هذا بينما كانت حركة احياء «فلسطينا» الصهيونية تنفذ بذراعها اليسرى، نحو جليل «الكفار» الذي اجبر اليهود سكانه على اعتناق اليهودية بالقوة قبل ميلاد السيد المسيح بأقل من قرن واحـد ،

وبذراعها اليمنى نحو النقب ، متعقبة آثار الفلسطينيين والسحريتين ، وهم غزاة آخرون سبقوا الصهيونيين في تقدمهم نحو العقبة .

وفي سنة ١٩٤٩ م ، كما في سنة ١٣٥ م . وسنة ٧٠ م وسنة ٥٨٦ قبل الميلاد وسنة ٧٢١ قبل الميلاد وسنة ٧٣٢ قبل الميلاد كان المجتمع الفلسطيني المنتزعة جذوره من ارضه الوطنية بفعل عاصفة عسكرية أو سياسية ، يواجه تحدياً يبعثره في الخارج بين الأمم الأخرى لكي يظهر فيما إذا كان ذلك المجتمع قادراً على المحافظة على شخصيته في حالة التشريد كما فعلت مملكة يهوذا او انه سيضمحل ويذوب كما فعلت مملكة اسرائيل . الا أن مشردي القرن العشرين الفلسطينيين هؤلاء كانوا (غير يهود) ، بينما كان الغزاة الذين اقتلعوهم من ارضهم هذه المرة هم اليهود . وكانت هذه المتناقضات الجغرافية والتاريخية نتيجة لتناقض سيكولوجي عجز اليهود عن الصمود له .

وتفصيل ما تتضمنه الصهيونية من ذلك التناقض : انها في مجهودها الشيطاني لبناء مجتمع يهودي محض ، كانت تعمل بكل قوة لحساب تمثل اليهود في عالم غربي مسيحي ، شأن الفرد اليهودي الذي اختار ان يصبح بورجوازياً غربياً ، دينه اليهودية ، او بورجوازياً غربياً لا دين له . لقد كانت اليهودية التاريخية — المشردون — والطبيعة المتميزة للنفس اليهودية ، وهي في أصلها تكريس للشريعة الموسوية وذروة للكفاءة في التجارة والتنظيم المالي — هي التي استعملها اليهود المشردون طوال العصور المتعاقبة . وهي التي اكسبتهم تلك القابلية السحرية

للبقاء رغم كونهم مشتتين في بقـــاع مختلفة من الارض . وسواء كان ذلك خيراً او شراً ، وباتفاق عـام ، فإن شهادات الشخصيات الرفيعة المكانة ، بما في ذلك المسيحيون الذين فتنهم هـذا واليهود الذين استنكروه ، تتفق على أن تكييفَ مشتتي اليهود حسب بيئـــاتهم هو روح التهودّ بالمعنى المصطلـح عليه تاريخيـــاً لذلك التعبير . ومعنى هذا ان اليهود المتأخرين الذين أخذوا بالنظم الغربية ، سواء كانوا من اتباع المدرسة الليبرالية أو الصهيونية ، كانوا يقطعون حبل الاتصال مع هـذا الماضي اليهودي التاريخي . والفارق البارز بين الصهيونية والليبرالية هو توسيع شقة الخلاف وجعل تلك الشقة مخيفة للغاية .

فحين يهجر اليهودي الليبرالي حياة التشريد بشكل افرادي ثم يضع نفسه بين صفوف البرجوازية المدينية الغربية الحديثة يكون يصهر نفسه ضمن قائمة اجتماعية مسيحية قد عفى عليهـا الزمن . أما حين يهجر المشتتون اليهود ذلك بشكل جماعي ، ومن أجل ان يبنوا أمة جديدة تتجمع على ارض واحدة مقلدة في ذلك آثار الرواد البروتستانت المسيحيين الذين خلقوا الولايات المتحدة وكندا واستراليا ونيوزيلاندة ـ فان الصهيونيين يصهرون أنفسهم وينقلبون إلى طبقة اجتماعية مسيحية لا مثيل لها في حياة اليهود بعد النفي . وتكون آمال تلك الطبقة الجديدة ومطامحها غير مشتقة من العهد القديم ولا من اشعيا بأكثر من اشتقاقها من « ديتروا شعيا » ، بل انهـــا في الواقع مشتقة من كتابي يوشع

وسفر الخروج[1] « اكزودس » .

كان الهدف الجريء الذي يسعى اليه الصهيونيون هو أن يقلبوا ، ومن عندياتهم الخاصة ، جميع الخصائص اليهودية المتميزة ، وذات الاصول العميقة في الحياة التقليدية ليهود التشريد . ومن أجل ذلك شرعوا يعيدون أنفسهم إلى عمال يدويين بدلاً من طبقة مثقفين ، وأخذوا يسكنون الأرياف والقرى بدلاً من كونهم سكان مدن ، ومنتجين بدلاً من سماسرة ورجال وساطة ، ومزارعين بدلاً من رجال مال ، وجنوداً مقاتلين بدلاً من أصحاب دكاكين ، وارهابيين بدلاً من شهداء ، وساميين ذوي روح عدوانية بدلاً من « لا ـ آريين » مستضعفين مسالمين . وكان هذا التقييم « النيتشوي »[2] لجميع القيم اليهودية التقليدية ، بغية الهدم بدلاً من كونه بغية البناء ، وفي سبيل الشر بدلاً من توجيهه إلى صالح الخير ، هو الذي تم توجيهه نحو

---

(١) أي « خروج » اليهود من مصر الى فلسطين ، وكذلك خروجهم من مرحلة ما بعد البيرانية وعودتهم إلى ما قبلها، وكذلك كتاب «اكزودس» وهو كتاب الفه أحد الصهيونيين المتعصبين ، يصف فيه كيف تم انشاء « اسرائيل » من ناحية سياسية وعسكرية ... كما ان في الكتاب كثيراً من الدعاية لاسرائيل بين القراء الغربيين ، وهو يصف المذابح الفظيعة التي اقترفها اليهود بـ « حملات التأديب » ويضفي عليها شيئاً من اطار الشجاعة والفروسية ...

والكتاب ممنوع دخوله إلى البلاد العربية لتشويه الحقائق وقذارته .

(المعرب)

(٢) نسبة الى الفيلسوف الالماني « نيتشه » (المعرب)

ذلك الخيال الذي كان يلوح لليهود في الأفق ، فيملأ قلوبهم الضيقة بالأمل في أن يجعلوا أنفسهم ابناء « أرض اسرائيل »[1] في عهد متأخر ، وفي فلسطين التي كان لها ان تصبح يهودية « كما أن انكلترا انكليزية » . وبدلاً من بقائهم ابناء قانونيين[2] لنيويورك ولندن ومانشستر وفرانكفورت التي كانت الواحدة منها ليست أكثر يهودية مما هي بومباي بارسية[3] أو أصفهان أرمنية[4] .

وقد تمكن الرواد الصهيونيون خلال الثلاثين سنة من حكم الانتداب البريطاني على فلسطين فعلاً من انجاز ذلك العمل الخارق الذي لا يكاد يصدقه عقل . لقد خلقوا فعلاً صنفاً جديداً من اليهود، صنفاً لم يعد سليل اليهودي المشتت يمكن ان يُعرف فيه. لقد صبوا ذلك السليل عملة جديدة . وكانت الطرّة والنقش على وجه هذه العملة البشرية الجديدة ليست طرّة ونقش (خليل)

---

(١) هذا هو التعبير الوارد في المخطوطات اليهودية بشكل متواتر .
(المعرب)

(٢) أي بقانون الاقامة فقط وليسوا انكليزاً أو أميركيين أو غيرهم .
(المعرب)

(٣) نسبة الى طائفة البارسي في الهند ، وأفراد هذه الطبقة انعزاليون كاليهود ، كما أنهم ذوو مهارة فائقة في الشؤون المالية مثلهم .
(المعرب)

(٤) في أصفهان ، بايران ، طائفة أرمنية ناجحة في ميدان الاعمال ولكنها شديدة الانعزال . (المعرب)

بل طرّة ونقش قيصر[1] . وكان البواب ، وهو فلاح تكنيكي اميركي في بعضه ومن مضطهدي النازية في البعض الآخر[2] طبعاً ذا صبغة غربية ، ومع أن « التغريب » بشكل جماعي ، وفي قالب قومي غربي حديث ،هو الهدف الذي استطاع الصهيونيون انجازه والظفر به ، فإن المغناطيس الذي جذبهم بمثل تلك القوة العنيفة نحو ذلك الهدف الغربي السمات الذي وصلوا اليه بعد قيامهم بقولبة أنفسهم ، كان هو « الوجود الحقيقي » للارض المقدسة . وإذا كان لنا أن نحكم على اساس قوة هذا العمل السيكولوجي العظيمة في تمكين الرواد الصهيونيين من انجاز ما انجزوه في فلسطين في هذا الجيل ، فانه يمكننا استخلاص ان الاعمال التي قامت بها الصهيونية ما كان لها الا ان تكون أقل ديناميكية لو كان مسرح نشاط الصهيونية يقوم في « اركاديا » ، شرق افريقيا ، وليس في « فليغرا » فلسطين[3] . بيد ان ذلك

---

(١) ويريد المؤلف ان يقول :

ان اليهود الذين سكنتهم الصهيونية من جديد كانوا يختلفون تمام الاختلاف عن اليهود الذين عرفهم التاريخ مشتتين مضطهدين ذوي خبرة بأعمال المال .

أما حليل أو « هوليل » فهو مثل « الياهو » رمز يطلق على اليهود .. كما يطلق اسم « العم سام » على أميركا ، و « جون - بول » على بريطانيا .
(المعرب)

(٢) اي أن تكوينه على هذه الشاكلة . (المعرب)

(٣) يريد المؤلف ان يقول: ان فلسطين بطبيعة أرضها خصبة ، ظروفها توائي النجاح ،ولذلك فانه لا يجوز التهويل في نجاحات الصهيونيين في اسرائيل

الشعور الغامض المتعلق بأرض اسرائيل التاريخية والذي الهم الرواد الصهيونيين ومنحهم قوة روحية يزيلون بها الجبال كان في جماعه مشتقاً من اللاهوت الارثوذكسي في التشريد ، وهو الذي حكم على الصهيونيين بالوقوع في المعصية إلى حد الكفر لمحاولتهم اغتصاب تحقيق « وعد الله » باعادة اسرائيل إلى فلسطين بتدبيره هو .

والآن ، ما هو الحكم الذي سيصدره عقل اليهودي المؤمن على عمل الصهيوني العاصي لاستماضته عن امل المشتتين اليهود الديني واستبدال ذلك الأمل بغيره ؟ وماذا يقول فيه وقد ظل ذلك المؤمن يندب طويلاً إلى جانب الهيكل ، وهو البقية الباقية التي تشهد على الخطأ الكبير الذي اقترفه اسرائيل الكبير بحق الله؟ وكيف يتناقض ذلك المؤمن حين يطلب من ربه الاستعجال في تحقيق وعده باعادة اليهود إلى فلسطين ؟ وما هو العمل الذي ستتخذه وزارة الداخلية في اسرائيل الصهيونية ، وتأمر بوليسها أن يتصرف على أساسه ، تجاه اليهودي الذي يظل يندب اسرائيل؟ تلك «الاسرائيل» التي تم ان اعادها الصهيونيون بالقوة البشرية؟

هل ستعتبر السلطات الصهيونية السياسية في اسرائيل ذلك الطقس الديني التقليدي عملاً استفزازياً ذا طبيعة خيانة ؟

(وتلك دعاية تبثها اسرائيل في اميركا) . ولو كانت الصهيونية تعمل في اركاديا بشرق افريقيا مثلاً ، لما استطاعت هناك أن تحرز الا القليل مما احرزته « دولة » اسرائيل الحالية .. و « فليغرا » مدينة وارض خصبة في بلاد الاغريق . (المعرب)

خصوصاً وان الهيكل في يد العرب ؟ أو أنهـــا تعتبره عملاً ينم عن ميول ودية تجـــاه العرب ، وضد الحقيقة القائمة عن وجود « اسرائيل » تدنست حين أقامتهـا الصهيونية على شكل دولة صهيونيـــة بأيدي البشر ؟ ان التحقق العملي للأغراض السياسية للحركة الصهيونية قد جلب ، بالفعل ، مشكلة يهودية جديدة إلى مسرح التاريخ . فقد جمعت اسرائيل الحـــاضرة بين كل شيء يهودي وكل شيء غير يهودي ، وسيخرج من حاصل الجمع العام لتينك النسختين من رواية اليهودية طبعة ثانيـــة جرى تنقيح صفحاتها مقدّماً . ألا وهي قصة مـــا بين المشتت اليهودي ذي العقلية الآسيوية العتيقة الموجودة في الولايات المتحدة ، وبين قومية يهودية صبت حسب القالب الغربي فجاءت على شكل دولة فلسطين !!

ان التناقض الذي خلقته الصهيونية وساعدت على ابرازه في الداعين اليها — والذي تتضمنه حـــالة « عدم الكون يهودياً » في نفس « اليهودي النائب » — هي أن الكون يهوديـــاً ، وبالمعنى المتعارف عليه تاريخياً لذلك الاصطلاح ، لم يكن النتاج الأصيل لعرق « فيسيوسايكولوجي » وإنما هو الانطباع المرن لاستجابة سيكولوجيه خاصة لتحدٍ اجتماعي معين .

فخلال فترة جيل واحد ، كانت الاستجابة المختلفة الأشكال التي ظهرت عند الرواد الصهيونيين في فلسطين لذلك التحدي المختلف القوة قد أنتجت تفارقاً مذهلاً في النفس والنوعية . وليس

في هذا حدث فريد من نوعه . ففي الولاية المجاورة من العالم العثماني ، وخلال ذلك العهد الذي تم فيه تأسيس دولة قومية يونانية ، ما بين سنة ١٩٢١ - ١٩٢٩ ، استطاع اليونانيون في مملكتهم الآخذة بأساليب الغرب أن يغيروا نفسهم ونوعيتهم أيضاً . وقد أصبح ذلك ملحوظاً في تميزهم عن أسلافهم « ملة الروم » الذين تابعوا كونهم يعيشون بعقلية « رعيّة » للباب العالي .

ويبقى المقدار الذي نجح به المواطنون في دولة اسرائيل الصهيونية في تحويل أنفسهم جماعياً إلى يهود اميركيين أو المان معاصرين . والواقع انه كلما زاد نجاح هؤلاء في تحويل أنفسهم كلما زاد ابتعادهم عن أعضاء الأقلية اليهودية الغربية التي نشأت فيها « اسرائيل »[1] والصهيونيون . ولربما أثبتت النتيجة التي يمكن أن تحدث من استمرار هذا التباعد بين اليهود التقليديين ، ونسلهم المنقلب ، انها مشكلة عسيرة جداً . وذلك لأنه ، حتى بعد استئصال الاقلية اليهودية من وسط أوروبا ، ظلت الاقليات اليهودية[2] أكثر عدداً باضعاف المرات ، وأعظم ثروة بنسبة كبيرة ، مما هو يوسع الوطن الصهيوني في فلسطين ان يطمح اليه .

---

(١) أي « الاسرائيل » القومية المخالفة للدين اليهودي . (المعرب)

(٢) جمع كلمة « اقليات » ليعني « الاقليات اليهودية في مختلف بلدان العالم . » (المعرب)

والحقيقة أنه — وحسب مدى قدرتنا على التنبؤ — ستظل العاطفة والمساعدة المالية والسياسية من يهود الولايات المتحدة هي الرافد الأول لحياة اسرائيل في فلسطين ، ولا يبقى بعد ذلك إلا أن نرى حتام يظل أولئك المتبرعون الأجانب كراماً نحو اسرائيل ؟ اولئك المتبرعون الذين هم مواطنون اميركيون بالاضافة إلى كونهم يهوداً . والى متى سيظلون راضين بهذه المزدوجة ؟ ودون الحق في تمثيلهم في البلاد ؟ هل يوافقون طويلاً على مبدأ « ضرائب بدون تمثيل [1] » ؟.

ان اسرائيل الصهيونية في فلسطين في ضآلتها وعصبيتها وعداوتها « الاسماعيلية » [2] لجيرانها هي نتاج من نسخة كربونية[3] للدولة القومية الغربية الحديثة ، التي كادت تصبح معضلة لشدة اخلاصها لقوميتها . وما اسرائيل الصهيونية هذه الا حظاً عاثراً لكلا الطرفين : اليهود والعالم ، وحظاً عاثراً

---

(١) كان مبدأ « ضرائب بدون تمثيل » أحد المبادىء التي قامت عليها ثورة المستعمرات الانكليزية في اميركا الشمالية (الولايات المتحدة حالياً) على الخصوص ، وجميع الثورات على الملكية المطلقة في اوروبا بشكل عام .
(المعرب)

(٢) يعني العنيفة ، وهو يشير إلى الفرق الاسلامية التي تسترت بالدين لتنفيذ أغراض ليست من الدين في شيء .. واتخذت السم والخنجر والفظائع الاخرى وسيلة للفتك باعدائها كالحشاشين وغيرهم .. أما المذهب «الاسماعيلي» فبراء من كل ذلك .
(المعرب)

(٣) أي انها مشوهة .

جداً لدرجة ان تلك الدويلة – المتولدة من كثير من المثالية ، وتضحية النفس ، والجريمة ، والظلم ، والآلام – قد قدر لها ان ترى النور في اللحظة التي يؤمل فيها العالم ان فصيلة الدول القومية ، التي كانت اسرائيل احدث أعضائها سناً ، تقترب من نهاية حياتها ، ويمكن تغذية هذا الأمل إلى درجة معقولة طوال القرن العشرين بعد المسيح . وذلك لأن القومية الغربية الحديثة قد غدت عتيقة ليست أكثر من ماضٍ غابر للمجتمع الغربي الذي هو آخذ في التكون على صورة جديدة .

لقد ولدت اسرائيل متأخرة عن زمانها . إذ أنه في نفس الوقت التي بُعثت فيه تلك الدولة القومية في اسرائيل غداة الحرب العالمية الثانية ، كانت الدول القومية الموجودة ، من اصغرها حتى أكبرها ، تناضل بعناد مستميت – كان بوسعها توفيره على نفسها لو أخذت بنصيحة الملك كانوت – محاولة حصر « اوقيانوسية »[1] التقدم التكنيكي العارمة التي كانت تصرخ بها هادرة تزحف مكتسحة امامها جميع السدود الضعيفة الآساس.

لقد كان هنالك (في ذلك الوقت) وكام من تبادل الإشراف على الحواجز الجمركية ، وحطام من القيود على تبادل النقد . وكانت هنالك فصائل من البوليس[2] الذي يحافظ على تطبيق

---

(١) أي موجة طاغية وكأنها اوقيانوس يتحرك دفعة واحدة .
(المعرب)

(٢) يقصد السلطات الحكومية في جميع الدول . (المعرب)

قيود الهجرة ، تقف عاجزة عن ادراك ما تستطيع ان تعيق به مسيرة ذلك المد الطاغي الذي يحمل البشرية على أمواجه نحو عالم موحد .

إن هذه الدول القومية التي يلمحها ملاح الطائرة مبعثرة على وجه عالمنا الآخذ نحو التجمع بسرعة قد عفا عليها الزمن . شأنها في ذلك شأن مناطق « الغيتو » اليهودية في السابق .

وهي في الحاضر شرنقة حريرية للمجتمعات المقبلة التي تداخلت واختلطت حدودها دون ان يفقد أي منها خصائصه المميزة .

وفي عالم تم توحيده بفعل التكنولوجيا الغربية ، رغماً عن انفه ، يبدو المستقبل التنظيمي اقل بعداً عن المؤسسة الغربية للدولة القومية منه عن مؤسسة المطرقة[1].

ولربما وجد المهندسون المشغلون بوضع دستور موحد للعالم بأجمعه افكاراً تنفعهم لبناء اساساتهم فيما فعله آباء دستور الولايات المتحدة . اما ذلك التنظيم الكلاسيكي الذي وضعه العبقري « محمد الفاتح » لنظام الملّة في الامبراطورية العثمانية فلربما أثبت انه مصدر أكثر قدرة على الوحي والالهام في تصميم غرف هذا العالم في البيت ذي الطوابق المتعددة .

---

(١) يقصد التنظيم السوفياتي . (المعرب)

مُنَاظرة

بين

الدّكتور تويِنْبي

و

يامَاكُوف هَرتْزوك

سَفِير اسْرائيل في كَنَدا

نص مناظرة الدكتور « ارنولد توينبي » مع السفير الاسرائيلي الى كندا « ياماكوف هرتزوك »

ياماكوف هرتزوك :

حضرة السيد الرئيس :

منذ اسبوع واحد أثيرت في هذه القاعة قضية بالغة الأهمية. كانت قضية قيَم وتحليل. كما أجريت مقارنة ما. وكانت المحاضرة تتضمن مفهوماً لكلمة « أخـــلاق » . . ولكلمة « أخلاق » هـــذه اهمية بالغة : فهي تمس مقدّرات أفراد العالم بأسره. ولكنها قد اثيرت على يد البروفيسور توينبي على مدى أوسع من هذا ، مدى يشمل فترات كاملة من التاريخ.

وانني لأتفق مع الملاحظة التي قال بها البروفيسور توينبي ونشرتهـــا الصحف قبل اسبوع ، كما أظن ، حول طبيعة الأزمة العالمية الحاضرة. والكل يوافقون على أن الازمة الحالية

ينقصها التعريف الدقيق . فالرجل العادي مثله مثل رجل الدولة يدرك أن الانسانية في الوقت الحاضر ، تواجه الخيار بين نقيضين احلاهما مرّ . وهما : الخـــلاص ، أو الفناء ، أو بكلمة اخرى : في اتخـــاذ نظرة جديـدة إلى غرض التاريخ أو الوقوع في بركة النسيان والعدم . والجميع يدرك أنه عن طريق طفرة حاسمة إلى الأمام في الوعي الروحي للانسان ، وعن هذا الطريق فقط ، يمكن العثور على حل لهذه المعضلة الانسانية . ففي محـــاولة الحضارة في وقتنا الحاضر — واستعملُ هنا عبارة البروفيسور توينبي — في محاولة الحضارة هذه :

ينبغي أن تأتي الطفرة وتتولد من مفهوم أعمق « للأخلاق ».

وامـــام هذا الجمع الكريم في الاسبوع الماضي ، وكما ذكرت جرائد مونتريال ، قارن البروفيسور توينبي من ناحية اخلاقية بين سلوك اسرائيل مع العرب في سنة ١٩٤٧ — ١٩٤٨ ، وبين مذابح النازي لستة ملايين يهودي .

واود أن أقول كلمة بخصوص هـذه المقارنة ، إلا اني اراه يتوجب عليّ أول الأمر ، أن اوضح أن البروفيسور قد صرّح بأنه لم يكن يقارن بين الحادثين من ناحية احصائية . مع أنه شدّد ، هكذا نشرت الصحف ، على أن المقارنة من وجهة اخلاقية تكون مقارنة صحيحة واجبة .

هذه هي النقطة الاولى .

أما الثانية : فقد اقتبست الجرائد من حديث الدكتور قوله :

لا حق تاريخياً لليهود في اسرائيل .

والآن ، وكمظهر من هذا التحليل أقول :

لقد اكتشفت محكمة نورنبرغ الدولية ، انه في صيف ١٩٤١ كانت هنالك خطط قد رُسمت لحل قضية اليهود في أوروبا بشكل نهائي . وكان هذا الحل النهائي ، كما نعرف جميعاً ، يتضمن في حقيقته قتل ستة ملايين من أفراد شعبنا بكل شراسة وعنف ، وبما في ذلك مليون من الأطفال !

وهذه جريمة لا يزال الخيال البشري يجدهـــا عسيرة التصوّر . وبعبارة التوراة :

« لم تستطع الأرض أن تمتص الدماء التي أغرقتها » .

لقد كان هنالك تخطيط عن سابق اصرار ، وبدم بارد .. كان هنالك مسؤولية حكومة . . كان هنالك ابادة عدد ضخم يرقى إلى الستة ملايين .. وكان هنالك أيضاً ان أفني ثلث شعب كامل .. وكذلك المراكز الدينية لذلك الشعب ، وافكاره ، وثقافته ، وحركته الوطنية والاجتماعية .

كل ذلك استؤصل من أساسه .. وقد استنكر الدكتور

نفسه هذه الجريمة بكلمات صريحة حاسمة ! والحقيقة ، ان الانسانية ستظل تفكر ، وإلى آخر أيام الجنس البشري ، في أهمية ورعب ذلك المشهد الذي لم يسبق له مثيل في تاريخ الانسان .. رعب إبادة ملايين ستة من البشر .

أما فيما يتعلق بالشعب الذي أنتسبُ اليه ، فان أفراده سيظلون يندبون إلى الأبد . ذلك لأن ما اقترفه النازيون مأساة لا عزاء لها على الاطلاق .

ولأنتقلْ الآن إلى الجانب الآخر من التحليل .

لقد اتخذ أكثر من ثلثي أعضاء هيئة الامم المتحدة سنة ١٩٤٧ قراراً هو قرار التقسيم ، أي تقسيم فلسطين إلى دولتين : عربية ، ويهودية . وقد أعلن ممثلو العرب أنهم سيعارضون ذلك . وفعلاً ، لم تكد تمضي إلا أيام قليلة حتى شنّوا هجوماً على المجتمع اليهودي في فلسطين . وقد قال الأمين العام لهيئة الأمم المتحدة (المستر تريجفي لي في ذلك الوقت) في كتابه « في سبيل السلام » ص ١٦٣ ، قال : « منذ الاسبوع الاول من شهر كانون الثاني سنة ١٩٤٧ اخذت الفوضى تزداد في فلسطين .. كان العرب قد أعلنوا مراراً وتكراراً أنهم سيقاومون التقسيم بالقوة . وبدا أنهم مصممون على ذلك عن طريق الهجوم على المجتمع اليهودي في فلسطين . »

وفي ٢١ كانون الثاني سنة ١٩٤٨ كان ممثل بريطانيا في هيئة الأمم ، السير « الكسندر كادوغان » يصرّح أمام مجلس الأمن : بأن روح القتل والجرائم تنتشر بين العرب في فلسطين وأنها تطغى على كل الاعتبارات الأخرى .

وفي ١٦ شباط سنة ١٩٤٨ نشرت لجنة فلسطين التابعة لهيئة الأمم المتحدة ، تقريراً وجهته إلى مجلس الأمن تقول فيه :

بأن مصالح العرب الأقوياء في داخل فلسطين وخارجها تتعدى قرار الجمعية العامة . وهم — أي العرب — يبذلون جهداً جماعياً ليغيّروا القرار الذي يتعلق بتلك المسألة عن طريق القوة .

وفي شهر نيسان سنة ١٩٤٨ أشارت اللجنة إلى اعمال العنف والتهديد التي ظلت مستمرة في ذلك الحين ..

وانتهى الانتداب البريطاني . وبانتهائه في ١٥ ايار غزت الجيوش العربية فلسطين بعد أن أشعرت هيئة الأمم المتحدة « انها تتدخل في فلسطين بغية فرض النظام والطمأنينة بدلاً من الفوضى والشغب » .

لقد كان الأمين العام للجامعة العربية يعرف طبيعة هذا «الحق» ويدرك الواقع القانوني للبلاد تمام الادراك .

وأود الآن أن أورد ما نقلته محطة الاذاعة البريطانية

على لسانه بتاريخ ١٧ ايار سنة ١٩٤٨ . إنه يقول :

« وسيرى العالم حرب ابادة ومذابح جماعية يتحدث عنها التساريخ وتذكرهـــا الايام كما ذكرت شبيهاتهـا المغولية والصليبية . »

ونشبت الحرب .. وفي أثنائها وقعت خسائر فظيعة في الطرفين ، ووفيـات في القوات المسلحة والسكان المدنيين على السواء .. لقد اقتلعت اعداداً كبيرة من العرب في فلسطين من جذورهـــا ، كما انه بسبب الحرب أيضـاً ، وفي نفس الوقت ، اقتلعت جاليات يهودية كبيرة كانت تنتشر في الشرق الأوسط من جذورها أيضاً . إن كـلا من الطرفين قد خسر كثيراً . وقد غادر عدد كبير من العرب وطنهم على أمل ان يعودوا مع اطلالة فجر القوات الظافرة !! ولم تكن هنالك سلطة دوليـة تحدد المسؤولية عن مشكلة اللاجئين العرب . واننا (اليهود) لمقتنعون تماماً — كما نعتقد أن العرب انفسهم مقتنعون ، وكذلك البريطانيين وغيرهم — بأن مشكلة اللاجئين الفلسطينيين كانت نتيجة لحرب أعلنها العرب بتأثير النداءات التي وجهها اليهم زعماؤهم بأن يتركوا كل شيء إلى أن يعودوا بعد فترة قصيرة .

لقد أوضحت ذلك جريدة عربية اردنية حين قالت :

« لقد طلبوا الينا أن نخرج لكي يستطيعوا الدخول »

فخرجنا ، ولكنهم لم يدخلوا ! »

والآن يا سيدي البروفيسور ، دعنا ننظر إلى الأمر من زاوية النتائج التي عقبته ، ذلك ادعى لمثلنا في تحليل هذا الموضوع . ولتكن نظرتنا من الوجهة الاخلاقية لاولئك العرب البالغ عددهم مئتي الف نسمة والذين بقوا في اسرائيل .

انهم يتمتعون بالمساواة في كل الحقوق ، جنباً إلى جنب ، مع مواطنيهم اليهود . وأنا أمثل هؤلاء المواطنين العرب كما أمثل المواطنين اليهود تماماً ، لأن الجميع مواطنون اسرائيليون.

صحيح أن في مخيمات اللاجئين عدداً كبيراً من اللاجئين الفلسطينيين ، إلا أن عدداً كبيراً منهم قد امتصهم اقتصاد البلدان المجاورة . وحتى اولئك الذين يسكنون المخيمات ، يشتغل عدد كبير منهم . ولا شك انه قد ارتفع عدد هؤلاء اللاجئين خلال الثلاثة عشر سنة الماضية . ومهما يكن الأمر ، فان هنالك فرقاً كبيراً بين الكيان الطفيلي (اللاجئين) والافناء التام (المانيا واليهود) .

إن اللاجئين العرب لا يزالون يعانون آلامهم لأن الحكومات العربية التي خلقت هذه الآلام قد رفضت أن تخلصهم منها عن طريق نظرها بعين العطف إلى مشكلتهم. لقد ظلوا يسيرون في نفس الخط من الآلام ، لأنها ظلت تسير

في نفس الاتجاه منذ عام ١٩٤٧ .

أيها البروفيسور : هنالك علاقة بين الحادثين اللذين تشير اليهما ، وهي أنه قد اعتُدي على الشعب اليهودي في كلتا الحالتين .

ففي الحالة الأولى أبيد ثلث شعبنا .

أما في الحالة الثانية فقد صمدنا للعدوان . وكانت مقاومتنا دفاعاً عن النفس .. وكان لحسن حظنا وبعناية الله أن نجحنا هذه المرة .

أما نقطة العلاقة الثانية فهي :

إنه خلال تجربتنا وتعرضنا للفناء في أوروبا ، كانت إرادتنا تظل تقوى ، ويظل تصميمنا يزداد على اننا يجب أن نعمل كل ما في طاقتنا لنحول دون وقوع شعبنا في هذه المأساة مرة ثانية . ولكن كيف يكون الحادثان :

أ — ابادة ثلث شعبنا .

ب — ومشكلة العرب اللاجئين التي خلقتها حرب بدأها العرب انفسهم ...

كيف يمكن لهذين الحادثين أن يُذكرا بذات النفَس ؟ هل نقرّ تعديلاً على البند (٥١) من ميثاق هيئة الامم المتحدة ؟

وهو ذلك البند المتعلق بحق الدفاع عن النفس ؟

هل نجعل التعديل يقول :

إذا هاجمك أحد فلك أن تقاومه .. ولكن ، تذكر في هذه الحال ، ودون النظر إلى مبلغ الآلام التي تعانيها في مقاومته .. تذكر ان التاريخ سيدينك إذا قاسى ذلك المهاجم أية آلام على يديك .. وسيدينك على أنك متأثر بالأفكار النازية ، أما هو فإن التاريخ سيدينه لعدوانه عليك ؟

يا سيدي البروفيسور : هل تراك تتحدث بالاحترام عن غاندي ومفاهيمه ؟

هل تربطه في حلقة التاريخ مع « رحابي جواكيم بازاكي » ، وهو أحد اساتذة القانون في الوقت الذي تم فيه تدمير الهيكل للمرة الثانية ؟ ولربما تحدثنا في ما بعد عن رحابي جواكيم بذاته وعن نظرياته وعلاقته مع مدارس الفكر الأخرى ، ولكنه يسرني أن أقول ، وبالقدر الذي اطلعت عليه :

إن غاندي وان كان لم يرَ الحماية لنفسه ، فانه لم يستنكر ابداً مسلك اولئك الذين يدافعون عن انفسهم .

ماذا تُرى كان علينا أن نفعل ؟

هل نسمح لأفعال النازية أن تتكرر ؟

هل تريد أن نُذبح ؟

وهكذا وكما ترى يا سيدي ، إن الزعم بالنقص في اخلاقيتنا قول غامض وغير حكيم . والمفاهيم الخلقية ، يا سيدي البروفيسور ، لا تقوي الاخلاق ما لم يتم تخصيصها وتعريفها بوضوح ، وانما تضعفها . ويستطيع المرء أن يقول :

انها قضية اخلاق حيادية . لقد تكلم « ارنست ريتوند » عن « الحقيقة ليست ذات وجهين » . وليست عندك «حقيقة متقلبة» يا سيدي ، ولكن ، إن لديك متضمنين مختلفين للحق والباطل .

يا سيدي البروفيسور ، لقد سرّني أن أقدّر لك حضورك هنا ، وسيسرّني لو استطعتَ أن توضح لي وللسادة الحاضرين ما الذي كنت تعنيه بالعبارة التي اقتطفتها صحف مونتريال من حديثك ؟

الدكتور تويشي :

أيها السيد السفير ، ان المتصارعين يتصافحون قبل أن يلمس الواحد منهم الآخر . ولربما كان هذا مثلاً طيباً للسفراء والمتناقشين ، وان كنت أخشى اننا لن نقدّم للحاضرين مشهداً لذيذاً يسلّيهم كما يفعل المتصارعون ، إلا أنه مهما كان الأمر فإن حضورنا يظل مشهداً جدّياً وفرصة طيبة . ومع أنه ، كما قال السفير ، هنالك سؤال أو اثنان آخران يريد هو كما أريد أنا أن نبحثها بحضوركم أيها السادة ،

فان السؤال الأول هو الأهم . فهل هو فيما يتعلق بالتوازي في كتاب نشرته سنة ١٩٤٥ ؟ أظن أن تلك السنة كانت بين ما فعله النازيون لليهود الأوروبيين وما فعله اليهود الأوروبيون لعرب فلسطين . وهو الذي تولد منه ، كما قال عريف الحفلة ، أحد الأسئلة التي أثيرت أمامي في اجتماع قاعة « حليل » الحاشد ، حيث وُجّه إليّ السؤالُ فعملت جهدي في أن أجيبهم . وقد أجبت : نعم ، « قد كتبته » وقلت نعم بنفس العبارة التي ذكرتها في الكتاب . ولا أزال عند قولي هذا .

والآن ، ها هو السفير قد استدعى نقطة جديدة حين أخبركم انني عندما انشأت هذه العبارة اول مرة ثم كررتها في اليوم التالي ، كنت أصرّح في نفس الوقت : بأنني لا أقوم بمقارنة عددية ما ، إذ أنه من الواضح تماماً ، أنه ليس هنالك مجال للمقارنة بين الأرقام التي ترتفع حتى تبلغ الملايين ، والأخرى التي اتحدث عنها في مذابح العرب فيما وراء خط القتال خلال الحرب بين الدول العربية واسرائيل سنة ١٩٤٨ .

إن العدد الأكبر بطبيعة الحال والزيادة الدائمة في ذلك العدد تنتج زيادة مثلها في العذاب بطبيعة الحال ايضاً ، ولكنه من المستحيل أن نكون شريرين أكثر من مجرمين مئة

في المئة .

دعوني أقول هذه العبارة بصراحة :

إذا قتلتُ شخصاً واحداً فان ذلك يجعلني مجرماً ، وليس من الضروري ان ارتفع بعدد قتلاي إلى رقم ألف شخص حتى أغدو كذلك .

وانني لاتساءل فيما إذا كان بيننا مصريون في هذه القاعة ، خصوصاً وأنا أعلم أن عدداً منهم يقيم في مونتريال ، فهل ههنا منهم أحد ؟

... يجوز ألا يكون .

حسناً .

دعونا نفترض أن أحد المصريين الموجودين في مونتريال يجلس بيننا الآن في هذه القاعة . ألا يقول ذلك الرجل : وكيف ، وأنت رجل انكليزي ، يكون بمقدورك أن تدافع عن مذبحة (التي تمت في سنة ١٩٥٦) السكان المدنيين في مدينة بور سعيد المصرية ؟ لقد تعقبتموها بالقنابل من الجو وارتفع عدد القتلى فيها إلى أربعة أرقام ؟ لقد تم ذلك بموافقة الحكومة البريطانية نفسها . وقد أرسلت فيما بعد موظفيها لتتحرى عن ذلك ؟ إنهم لم يجعلوا رقم الخسائر أكبر من أربعة أرقام ، هذا إذا كانت ذاكرتي لا تخونني هذه المرة .

ولنفرض انني أجبته :

لم يكن ذلك جريمة . لقد كنا نقتل الناس قتلاً فقط، وإلى أربعة أرقام ، بينما يجب أن يرتفع الرقم إلى مليون كي نصبح مجرمين حقاً ! ألا ترى أولئك الالمان قد بلغوا ذلك الرقم ؟ لقد قتلوا عدة ملايين . ولهذا فهم مجرمون . أما نحن البريطانيين فلسنا مجرمين أبداً .

والآن ، كيف ترون هذا الجواب ؟ ماذا ستقول مصر ؟ بل ، وماذا سيقول العالم ؟؟

إنني أعتقد أن هـذا المعنى ينطبق على جميع الحالات ومنها تلك المذابح – دعوني استعمل الكلمة المناسبة للوقائع التي أشيرُ إليها حينما أقارن ما قال السفير – وأنا أشير الآن إلى الحرب بين القوات المسلحة للدول العربية ، والقوات المسلحة الاسرائيلية .

لقد كان الموقف كما تعلمون .. لقد أعلنت الدول العربية من خارج فلسطين الحرب على اسرائيل . وأنا أريد أن ادافع عن ذلك .

أيها السادة : في ذلك الوقت كان ما هو أرض اسرائيل في الوقت الحاضر أرضاً عربية يسكنها سكان مليون عرب ظلوا فيها طوال قرون عدة . وكان معهم فيها اسرائيليون أيضاً منذ سنة ١٩١٧ أو سنة ١٩١٩ ، أو منـذ انشاء

القنصلية البريطانية في القدس . إذن ، لقد كان الضحايا هم عرب فلسطين المحليون أولاً .

ولننتقل الآن الى نقطة الاخلاق .

إنني أتفق تماماً مع السفير بأن تلك النقطة هي الأساسية التي تهم المستقبل كما تهم الماضي . ولقد سبق أن ذكرت قضية يؤلمني أن أذكرها ، ألا وهي : قضية بريطانيا سنة ١٩٥٦ . وأظنها تُظهر للآخرين بأن في استطاعتي أن أنظر إلى الأعمال التي يفعلها بلدي أو تفعلها البلدان الأخرى . ولكنني لا أعتقد أن النقطة المتعلقة بالأخلاق ، وبعد هذه المذابح التي قامت بها اسرائيل في فلسطين ، تتساوى من حيث النوع مع ما فعله الالمان . إن ما نكرهه فيما فعله الالمان هو أن جرائمهم كانت تدرس وتخطط سابقاً ، ثم يجري تنفيذها بدم بارد ، وقسوة شنيعة ، وهدف لعين . وأنا موقن أن جميع هذه الصفات تنطبق على المذابح الثانية التي لا تعدل المذابح الأولى من حيث الرقم ، وإن كانت — في نوعيتها — تعدل كل ما فعله النازيون . لقد قامت بها بطريقة أو أخرى قوات اسرائيلية مسلحة ، كعصابة «شتيرن» مثلاً ، وعصابة « ارغون » ، ولا أدري إلى أي حد انغمست الهاغانا في هذه الأعمال ، فقد سمعت عن « اشتراكها » في ذلك ، ولم اسمع ، على الاطلاق ، أن الهاغانا قد

انكرت ، أنه بعد إحدى هذه المذابح ، ومذبحة دير ياسين على التخصيص — تلك المذبحة التي أبيد فيها الجنسان من جميع الأعمار في القرية العربية الواقعة الى الغرب من القدس على ايدي قوات اسرائيلية مسلحة لا أدري فيما اذا كانت هي للقوات الحكومية المسؤولة أو كانت قوات غير رسمية — كان افراد الهاغانا يسيرون في سيارات مجهزة بمكبرات الصوت ، ويتكلمون باللغة العربية قائلين :

« ايها العرب ، نحن فعلنا ذلك بسكان هذه القرية . فاذا لم تشاؤوا أن نفعل بكم مثله فاخرجوا من هذه الديار . »

حينئذٍ كان على جميع السكان المدنيين الواقعين ضمن منطقة العمليات الحربية ، سواء عن حكمة منهم أو لأنهم في خطر الموت ان يخرجوا .

ألا يخرجون في تلك الحال ؟

لقد كان من حسن الحظ أنه بعد أن تسلم هتلر السلطة في المانيا ، استطاعت قلة فقط (وهذا من سوء الحظ) من اليهود في المانيا ، أن تنظم أمورها ، ولو بكثير من الصعوبة ، وتغادر المانيا . هكذا عجز الألمان عن ازهاق أرواحهم في ذلك الحين . ولكنهم كانوا يستطيعون ان ينهبوا ممتلكاتهم ففعلوا . وليس هناك من يظن ان اليهود الأوروبيين الذين خرجوا من المانيا في ذلك الوقت قد تخلوا

عن حقهم الشرعي في ممتلكاتهم ، واغفلوا لمجرد أن دفعتهم الحكمة وبعد النظر لأن ينجوا بأرواحهم وتقاليدهم فيخرجوا قبل فوات الأوان .

ودعوني أضرب مثلا ثانيا :

عندما غزا الالمان فرنسا سنة ١٩٤٠ هرب بضعة ملايين من سكان شمال فرنسا إلى جنوبها لنفس السبب الذي هرب منه عرب فلسطين ، وهو كونهم في منطقة العمليات الحربية سنة ١٩٤٨ . ولست أظن أن أحداً يوافقني على القول بأن هؤلاء الفرنسيين الهاربين ، كما يحاول ان يفعل جميع السكان المدنيين في منطقة عسكرية ، قد تخلوا عن حقوقهم وأراضيهم وممتلكاتهم وبيوتهم الموجودة في شمال فرنسا . ولو ان الالمان في الوقت الحاضر أقاموا الدعوى قائلين ، لقد غزونا البلاد ، وكان هؤلاء الفرنسيون قد نفذوا نصيحة غير سديدة فهربوا ، وغدا لنا حق شرعي في ممتلكاتهم ، وإنه لمن العيب كما انه غير شرعي ألا نحوز هذه الممتلكات ، لكان جوابنا : « إنه كلام سخيف . » .

والآن ، كما سوف تعلمون بعد قليل ، ان مركز اسرائيل في الوقت الحاضر هو مركز الالمان الذي ذكرته في المثل السابق ، وان كان على مقياس أوسع .

ولهذا فانني لا زلت أقول بأن اسرائيل بكاملها لا زالت

من وجهة شرعية ، ملكاً لعرب فلسطين الذين نزحوا عنها أثناء القتال بين الدول العربية من خارج فلسطين ، وبين الاسرائيليين . أما ممتلكات اليهود الحقيقية فهي الممتلكات التي اشتروها بحق خلال الثلاثين سنة من الانتداب أو ما قبل ذلك .

وأخيراً ، ان أول مستعمرة يهودية زراعية انشئت في فلسطين يعود تاريخها إلى سنة ١٨٨٠ م . وكانت بدائية متأخرة . وربما يقول بعضكم : لقد دفع اليهود « ثمناً » غالياً لتلك الأرض ، هذا صحيح ، كما انه من الواضح أن تكون هذه الأرض ليست شرعية لهم فقط ، بل انها لهم بشكل أدبي منصف أيضاً . وإذا كنت أحسن حفظ الأرقام ، فان تلك الأرض تشكل نسبة ضئيلة من المساحة التي تسيطر عليها اسرائيل في الوقت الحاضر . أما النسبة الكبرى من الأرض في اسرائيل الحالية ، والبيوت فيها ، والأموال المنقولة التي يستعملها اليهود ، وأشجار الفاكهة ، وغيرها فهي لا تزال حقاً شرعياً للاجئين العرب الذين يعيشون خارج بيوتهم في الوقت الحاضر . إن كثيراً منهم يعيشون على مدى البصر من تلك البيوت . في ظروف قيد الشقاء والقنوط .

ودعني أعمم نقطة جديدة ، نقطة لا تختص بالطبيعة

عند العرب أو اليهود ، بل عند الإنسان حيثما كان ، وعند كلٍّ منا أيضاً . وما دمت أقول كلاً منا فدعوني أبدأ ببلدي مرة أخرى .

إنني أعتقد بأنه جانب قذر رديء من طبيعتنا البشرية التمسة ، أن نكون خاضعين للإغراء حيث أو حين يتمّ اقتراف جريمة أو مظلمة ، أو خطأ ، أو آلام ، ضدنا . ولربما كانت كلمة « اغراء » غلافاً لفظياً لا واعياً ، وارتداداً سيكولوجياً عندنا كي نفعل نفس الشيء لشعب آخر أضعف منا . دعني أفصح عن ذلك مرة أخرى ، ومن التاريخ الحديث لبلدي ، فأقول :

كان السكان المدنيون في بريطانيا كثيراً ما يُقصفون بالقنابل في الحرب العالمية الثانية ، وكان ما عملناه بعد فترة لا تتعدى الـ ١١ سنة ، من ذلك التاريخ ، أي بين نهاية الحرب العالمية الثانية في عام ١٩٤٥ وبين سنة ١٩٥٦ ، أننا قذفنا الآخرين بالقنابل وقمنا بهجوم عدواني على مصر دون أن نعلن الحرب . وحين أدانتنا العالم لعملنا هذا قصفنا السكان المدنيين في مدينة بور سعيد أو في مدينة القاهرة ، كما أذكر وقتلنا أكثر من ١٠٠٠ انسان بريء على التأكيد ، أي أكثر من الذين ذبحهم اليهود من عرب فلسطين العزل سنة ١٩٤٨ أثناء القتال بين اسرائيل وبين الدول العربية .

والآن ، هذه هي مأساة الطبيعة البشرية . إنها مأساة أن الشعب الذي عانى كثيراً من الآلام على يد شعب ما يصب نقمته وعذابه على شعب آخر . ولمان كان الخيال البشري شيئاً بليد الحس قـذراً فانه من العسير عليه أن يعي في المرة الثانية ماذا تعني مقاساة هذه الآلام من جديد .

إن الشعب اليهودي يعرف ذلك ، وإذا كان الشعب البريطاني قد عانى آلام القصف مرة واحدة ولبضع سنوات ، فان الشعب اليهودي قد عانى الذبح والآلام والطرد من موطنه ليس لسنة أو عشر سنين فقط ، وانما لقرون تبلغ ٢٥٠٠ سنة ، وكلما كانت معاناة المرء للألم أطول ، فان بودي أن أقول ، يكون الزم عـــلى ذلك الشخص أن يعيد الكرة مرة ثانية . ويكون الاغراء بحذفها من الذهنية لا شك أكبر ، ويكون الواجب الاخلاقي يقضي عليه أن يبعد ذلك الاغراء بكل قوة يستطيعها .

وهنالك مظهر خـاص يتعلق بتأثير تلك المقارنة التي أجريتها ، واني لآمـــل انني قد اوضحتها بالضبط بالقدر الذي استطيـع . ولقد أدهشني حقاً رد الفعل الذي أحدثته في المجتمع اليهودي ، وقد تعجبت انا نفسي فعلاً وتساءلت: مـــا دامت تلك المقارنة قد بدت غير صحيحة كما يتضح من حديثك ، فلمـــاذا لم تقـــل بهذا الخصوص كما

والآن ، هذه هي مأساة الطبيعة البشرية . إنها مأساة أن الشعب الذي عانى كثيراً من الآلام على يد شعب ما يصب نقمته وعذابه على شعب آخر . ولمان كان الخيال البشري شيئاً بليد الحس قـذراً فانه من العسير عليه أن يعي في المرة الثانية ماذا تعني مقاساة هذه الآلام من جديد .

إن الشعب اليهودي يعرف ذلك ، وإذا كان الشعب البريطاني قد عانى آلام القصف مرة واحدة ولبضع سنوات ، فان الشعب اليهودي قد عانى الذبح والآلام والطرد من موطنه ليس لسنة أو عشر سنين فقط ، وانما لقرون تبلغ ٢٥٠٠ سنة ، وكلما كانت معاناة المرء للألم أطول ، فان بودي أن أقول ، يكون الزم عـــلى ذلك الشخص أن يعيد الكرة مرة ثانية . ويكون الاغراء بحذفها من الذهنية لا شك أكبر ، ويكون الواجب الاخلاقي يقضي عليه أن يبعد ذلك الاغراء بكل قوة يستطيعها .

وهنالك مظهر خـاص يتعلق بتأثير تلك المقارنة التي أجريتها ، واني لآمـــل انني قد اوضحتها بالضبط بالقدر الذي استطيع . ولقد أدهشني حقاً رد الفعل الذي أحدثته في المجتمع اليهودي ، وقد تعجبت انا نفسي فعلاً وتساءلت: مـــا دامت تلك المقارنة قد بدت غير صحيحة كما يتضح من حديثك ، فلمـــاذا لم تقـــل بهذا الخصوص كما

يقول الرجـــل الغبي عن الرجل السخيف : « ولمَ ؟ لا تهتم بها ، إنهـا سخيفة ، دعها وشأنها » — ولكن رد الفعل لم يكن من هذا النوع ..

لقد كان قوياً جداً ، وأنا اعتقد اني سأقول شيئاً تقليدياً متعارفاً عليه بحيث يستطيع أي رجل يدرس السيكيولوجيا أن يخبرك به. دعني أقول إنني قد سببت للجالية اليهودية ، بهذه المقارنة التي أجريتها ، شيئاً مما يسميه رجل السيكولوجيا « هزة المعالجة » ..

لقد رفعت الصوت عالياً .. وبكلمات جريئة كما أعتقد ، لشيء في ضميرك بل ضمير كل فرد من المجتمع اليهودي في العالم يلمسه ويرفعه اليه .

والآن ، دع صوتي يخفت للحظة واحـدة ودعني اسمع صوتاً آخر استطيع منه أن أقتبس « انني متأكد بأن العالم سيحكم على الدولة اليهودية بالطريقة التي تعامل بها العرب »

واعلم يا سفير أن هذه الكلمات ليست من عندي .. إنها كلمات رجل شهير في ذاكرتكم .. انه الدكتور حايم وايزمن الذي كان لي الشرف أن أعرفه عندما كنت شاباً ، والذي كان رئيس الجمهورية الأول لاسرائيل . واعتقد ان كلمـــاته هذه قد قيلت أو كتبت سنة ١٩٤٩ ، أي بعد الحرب التي قامت بين الدول العربية واسرائيل ، وعندما كان

وايزمن أول رئيس جمهورية لاسرائيل .

ولكني أسألك أن لا تدع صوتي يخفت هذه المرة ، إذ انه حتى صوت الدكتور وايزمن قد تلاشى . وأرجوك أن تصغي إلى صوت ضميرك .. وصوت الضمير في داخل كل منكم (اليهود) ، لأنه اولاً وأخيراً ، من الذي أيقظ الضمير الانساني ؟

باستطاعتي أن أقول : انه الانبياء اليهود .

ولست أعتقد أن أي شخص يعتنق الديانة اليهودية يمكن أن ينجو من توبيخ ضميره . وأكثر من ذلك ، لست أعتقد ، أن هنالك يهودياً يرغب في الفرار من ضميره الشخصي .. واني لأرى أن اليهود منذ أيام أنبيائهم ، ولربما قبل ذلك ، وقد ظل بينهم دائماً رجال يتمتعون بالنفاذ الروحي والشجاعة الأدبية بحيث يقفون وينتقدون شعبهم نفسه . ولو كنا لا نعرف عن الانتقادات التي وجهها اليهود في القرن الثامن والسابع قبل الميلاد وكيف كانت ، ولو كنا لا نملك الكتابات التي قال بها اولئك الكتّاب اليهود الذين انتقدوهم لكان في الأمر شك .

وانني لعلى هذا الأساس نفسه أقول الآن :

انتقدوا انفسكم ، ونقد الذات في حد ذاته عنصر من أنبل التقاليد اليهودية ذاتها ، ولهذا فسأدعك إلى ضميرك

يحاسبك عن وجود هولاء المشردين العرب الذين ارتفع عددهم إلى ٩٠٠ الف انسان ، إذ أن هنالك عـدداً كبيراً من الأطفال قد ولدوا في المنفى ..

لقد زرت .. زرت اللاجئين .. وأقول :

لقد كان من حسن حظي أن عائلتي لم تقتل وأن ممتلكاتي وممتلكاتهم لم تنهب ، وانني لم أطرد من وطني ، ولذلـك فاني اجهـل تلك الآلام التي يعانيها أمثالهم . إنهـا أول الأمر وآخره دليل على عدم الانصاف في المقدرات البشرية.

لقد رأيت وقابلت وتحدثت ، بل وشعرت بكل اسى وعطف على كثير من اللاجئـين الأوروبيين حين كنت في بريطانيا ، ومنذ الوقت الذي استولى فيه هتلر على الحكم . ومنذ سنة ١٩٤٨ زرت الأماكن التي يقطن فيها اللاجئون العرب ، كما تحدثت معهم تماماً بنفس الطريقة التي تحدثت بها مع اللاجئين اليهود في اوروبا . ولهذا فانني أعرف الألم الفظيع الذي هو في « الكون لاجئاً » . إن كثيراً منكم يا يهود أوروبا ، كما أعتقد ، جـاؤوا من أواسط أوروبا الشرقية من مدة قريبة بحيث أن تقاليد عائلاتهم في عهد والديكم أو والديهم لا زالت مذكورة ، وانتم تعيشون الآن في ذكريات هـذه الآلام التي قاستها عائلاتكم ، أي أنكم تعرفون ما أعنيه من ألم اللجوء بشكل أعنف واكثر حيوية

مما أعرف .

وعلى هذا أقول : انني أدع الأمر لتقلبوه في ضمائركم وتروا ما يمكن عمله بخصوص هـذا الوضع ، وذلك لأننـا فتحنا باب المشكلة على مصراعيه ولم نوجد للمشكلة حلاً .

هرتزوك :

سيـدي البروفيسور : اسمح لي أولاً أن اقول : انني اتفق تمام الاتفاق مع حديثك عن تلك الميزة الطبيعية التي سميتها النقد الذاتي . وانني لآخذ الأذن منك في ان ألخص ما قلته انت يا سيدي في ثلاث نقاط :

ففي الدرجة الأولى انا افقـه انك متفق معي في أن الجيوش العربية قـد هاجمت اسرائيل عندما رأت النور . وبعبارة أخرى في أن اسرائيل كانت تفعل كل ما فعلته انطلاقاً من حق الدفاع عن نفسها .

الدكتور توينبي :

حسناً ، هنالك الشيء الكثير الذي يمكن أن يقال عن مثل هذا ، وذلك لأن الموقف مع « الاستقلال » لليهود وما يتلوه ، كان من وجهة نظر العرب نوعاً من الاستفزاز !

هرتزوك :

لقد كان استفزازاً على اساس قرار هيئة الأمم المتحدة . وكل سجل في هيئة الأمم المتحدة يؤيد هذا القول ، بما

فيه ما اقتبسته قبل قليل ، لقد كان موقف العرب في ١٥ حزيران سنة ١٩٤٨ قد بلغ حداً يشكل تهديداً للسلام، وقد قدر مجلس أمن هيئة الأمم هذا الموقف واعتبره تهديداً للسلام وقال : انه يمكن تطبيق المادة ٤٩ فيما يتعلق بما يجب أن يُعالج به ذلك الموقف .

انك تعترف يا بروفيسور انهم قد هاجمونا بالفعل، ولذلك فانه يتوجب عليك أن ترى القضية مقترنة بهذا الأمر . أما الآن فانك تجادل في أن شعبنا الذي واجه ذلك الهجوم ، اقترف جرائم فظيعة جداً مثل :

١ — حادثة دير ياسين .

٢ — طرد العرب وجعلهم لاجئين .

وقبل أن أعالج أياً من هاتين المشكلتين ، وذلك ما سأفعله بعد برهة قصيرة ، أقول :

ان المحور الرئيسي في افتراضك هو ان التأثير النازي والإضطهاد الذي نزل بالشعب اليهودي هما اللذان دفعاه إلى اقتراف مثل هذه الآثام والفظائع . ولقد ذكرتَ عملية قصف البريطانيين للمدنيين في بور سعيد سنة ١٩٥٦ ...

الدكتور توينبي :

نعم : هذا صحيح .

هرتزوك :

والآن يا بروفيسور ، انك تذكر في كتابك « دراسات في التاريخ » في المجلد الرابع ، ومن صفحة ١ إلى صفحة ٨ ف وتقول : بأنه طوال تاريخ محاولة الانسان لأن يتحضر وحتى الوقت الحاضر ، لم يكن هنالك مجتمع واحد حصل على التقدم والحضارة بحيث يستطيع أفراد ذلك المجتمع — وقت عنفوان الثورة والحرب — أن يضبطوا أنفسهم ويمتنعوا عن اقتراف الفظائع . وقد استشهدت هنا — لقد كتب هذا قبل الحرب العالمية — بسلوك الجيش الالماني في بلجيكا سنة ١٩١٤ ، وسلوك الجيش البريطاني من « السود والسمر » في ايرلندا سنة ١٩٢٠ ، والجيش الفرنسي في سوريا ، وكتائب الاشتراكيين القوميين الالمان في سنة ١٩٣٣ قبل الحرب الثانية ، ورجال القمصان السوداء في ايطاليا .

فهل تراني مصيباً يا سيدي في افتراض أنك تشعر بأن هذا سجل متعاقب على طوال التاريخ ؟ انك تقول انه « بسبب قصف بريطانيا من قبل الطيارين الالمان نشأت حالة ذهنية خاصة ، ثم نمت ندبة في الضمير البريطاني ، وقد انعكس ذلك في قصف « بورسعيد » الا أن فرقة « السود » البريطانيين الذين سبقوا في ايرلندا قد فعلوا ذلك سنة ١٩٢٠ أي قبل أن يستولي هتلر على الحكم بـ ١٣ سنة فما رأيك ؟

وهنالك حوادث كثيرة مشابهة استطيع ذكرها - ويمكنك أن تأخذ ، حتى في أثناء الحرب العالمية الثانية ، قصف البريطانيين لمدينة برلين ، فهل تتفق معي اذن في ان جميع هـذه الحوادث تتصف بصفة الوحشية وهي نسبية حسب قولك ، سواء كانت في قصف برلين الحرب العالمية الثانية ، أو كانت قبل ذلـك — السود في ايرلندا ، أو هيروشيما أو معاملة الهنود الأميركيين السابقين ؟

انك في جميع هذه الأحداث تشعر بأن هنالك شيئاً من الوحشية . واني لأرجو أن توضح لي كيف تقارن هذا مع النازية ؟

٢ — انك تقف معي أيضاً في انه قد وقعت هنالك مذابح من العرب في اليهود المدنيين . ويمكنني أن أقدم لك تفصيلات ذلك . واذا جئت يا سيدي إلى اسرائيل فانني سأريك قبورهم ، ومقدار الرعب الذي كان يستولي عليهم ، وبمدة طويلة قبل وقوع حادثة دير ياسين — التي سأشير اليها بكل تفصيل فيما يتلو . هـل كانت هذه أيضاً من نفس نوع الوحشية النازية ؟ وإذا كان الأمر كذلك ، فلماذا لم تقل يا بروفيسور بأن الطرفين : العرب واليهود قـد ، سلكوا نفس السلوك ؟

لماذا انتخبتنا نحن !

لماذا أفردتنا بهذا ؟

لماذا لم تكتب عن بريطانيا ؟

وتقريباً عن جميع دول العالم بما يطابق تعريفك هذا ؟

وأخيراً أود أن أتكلم قليلاً عن حادثة دير ياسين . واقترح أن يكون اللاجئون موضوعاً نتحدث عنه فيما بعد . ومع هذا سأقول عن دير ياسين ما يلي :

لقد حدثت واقعة دير ياسين بعد سلسلة من المذابح الأخرى : كالفتك بخمسين عاملاً يهودي في حيفا في شهر كانون الثاني سنة ١٩٤٧ ، وقتل قافلة بعد قافلة ، ومنها قافلة كفار عصيون التي فقدنا فيها اربعين رجلاً ، ثم نسف حيّ بن يهوذا ، وفيه قتل خمسون شخصاً وجرح سبعون .

والآن ، لقد كانت هذه الاستفزازات الكبيرة في مدينة محاصَرة ! كما ورد في « نظرة شاملة للدراسات الدولية » الذي كتبه الدكتور « كيرك » تحت اشرافك . وهو يورد أن قائد منظمة ارغون صرح بان منظمته منيت بخسائر فادحة .. خسائر ذات قيمة ، وان المسؤولين عن ذلك العمل قد زعموا بأن السكان المقيمين في تلك القرية من العرب قد حُذروا ونبّه عليهم أن يغادروا بيوتهم ، وان تلك المأساة قد تحولت إلى « قتال » اليد باليد . وفي الحقيقة لقد قتل قائد العملية نفسه ، فهل هذه مذبحة وحشية ! ولكني أضيف على

ذلك قائلاً : ومهما كان الأمر فان ذلك الحادث قد أدانته الوكالة اليهودية في حيفا بكل قسوة وبكل صراحة . ولقد أرسلت برقية أسف واعتذار إلى الملك عبدالله في الأردن. ولهذا يتوجب عليك يا بروفيسور أن تنظر اليه من هذه الزاوية . اننا لم نسمع ما يعبر عن الأسف والندامة للمذابح التي قام بها العرب فينا مع انه قد جرت تلك المذابح في نطاق حق الدفاع المسلح ضدنا !

ولألخص ما قلته فأقول : ان ما اسألك اياه هو :

هل تتفق معي في أنه كان هنالك خيط يربط ما بين كل عمل من الأعمال الفظيعة التي اقترفها الجنود في البلدان المختلفة والعصور المختلفة ؟

وإذا كان الأمر كذلك فهل تتفق معي أن في المسموعات عن الفظاعة النازية يمكن اطلاقها على جميع الأمم وليس على اسرائيل فقط ، بل بما يشمل العرب أيضاً لما فعلوه معنا ؟ وعلى الخصوص منذ هاجمونا وكنا نقوم بالدفاع عن أنفسنا ؟

أما دير ياسين وقضية اللاجئين فسنتحدث عنها فيما بعد .

الدكتور توينبي :

حسناً ، انني افترض أن العرب يستطيعون أن يردوا على الوحشية بالوحشية التي تذكرها يا سفير . ويمكنك أن تذكر

كثيراً من الأمثلة مما فعلوه فيكم كما يستطيعون ذكر عدد كبير من الأمثلة عنكم ، و .....

هرتزوك :

وبالمناسبة يا سيدي ولو قاطعت حديثك :

في نهاية أول أسبوع بعد قرار ٢٩ كانون أول قتل ١٠٥ يهود وجرح عدد أكبر . نعم في الاسبوع الأول بعد القرار ، في كانون الثاني سنة ١٩٤٧ . وهذا مسجل في هيئة الأمم .

الدكتور توينبي :

لكن ، لقد كان هنالك أشياء مثل هذه من الجانبين . والآن ، بخصوص بلدي كما تقول : لقد ذكرتُ في المجلدات التي تم نشرها في ما بين الحربين أشياء فعلتها بلادي في ذلك الوقت ولو لم انشر هذا المجلد قبل العدوان الذي قامت به على مصر لكنت قد ذكرت اعتداء بلادي في ذلك النص . انني لم أستطع ذكره لأن المجلد قد كتب ونشر سنة ١٩٥٤ ، بينما حدثت الواقعة سنة ١٩٥٦ .

وهنالك شيء يطلق عليه الهنود اسم « كارما » ، او سلسلة الشر الاخلاقي . وهو تعميم لما حاولتُ ان اعرضه من قبل . واقول فيه : ان هنالك شيئاً في الطبيعة البشرية يجعلنا ننقل إلى شعب ما الشرّ الذي سبق أن وُجّه الينا . وأنا

أتفق مع السفير في القول بأن هذا عامٌ جداً ، ومُرعب جداً في الحياة البشرية ، ولكني أشعر أيضاً ، وبقوة عظيمة ، بأنه ، كما شعر بوذا عندما اكد وجود هذه السلسلة من « كارما » بأنها ليست عذراً كافياً ، فاننا لا يجوز لنا ان نقول ان ذلك عنصر في الطبيعة البشرية ، وان كل فرد قد فعله لفترة من الزمن ، ولذلك فإنه يمكننا ان نتسامح به ، ويهوّن الواحد منا على الآخر الشأن فيما فعل ويخفف عليه أمره .

إن علينا ان نحطم تلك السلسلة .

والآن ، دعنا نعود إلى قضية اسرائيل .

انني أعلم يقيناً ان هناك أناساً كثيرين ، من بينهم اكثرية سكان اسرائيل ، ترعبهم تلك المذابح التي قام بها جيش اسرائيل وقواتها المسلحة . وسكان اسرائيل أنفسهم هم قلة بالنسبة للشعب الذي يعتنق الدين اليهودي في العالم . وانا على شبه تأكيد بأن أكثرية اليهود في العالم قد افزعهم ذلك عندما علموه ، وبالقدر الذي بلغ مسامعهم منه ، لكونه شيئاً من مسؤولياتهم . فالمرء مسؤول ، ولو بقدر طفيف ، عن جميع ابناء دينه . وانا أيضاً أشعر بأنني اتحمل مسؤولية ، مهما كانت صغيرة ، عن معتنقي المذهب البروتستانتي (الالمان) في أوروبا ، وعما يفعله

(المسيحيون) في هذه اللحظة في جنوب افريقيا . ومسؤوليتي أعظم بخصوص مـا يفعله ابناء ديني البروتستانتي في كينيا وروديسيا . ولكن ، ان درجات المسؤولية محدودة. ودعني أوضح هذه النقطة :

ان كل اسرائيل قد غمست نفسها أول الأمر في نتائج ذلك الهرب ، والذي هو في حقيقته هربٌ جزئياً وطردٌ جزئياً من ناحية اخرى . ثم في مذابح واسعة ضد عرب فلسطين ، لأنهم احتلوا البلاد في السابق واستوطنوها . ولذلك: فان الممتلكات في اسرائيـل ، لا زالت ، من حق هؤلاء العرب بصورة شرعية .

وإذا وضعنا الامر بشكله الصريح نقول : ان ما فعلته اسرائيل سرقة ونهب . وانني متأكد بأنه ثقيل على الضمير اليهودي . وسيظل كذلك إلى ان يصفّى حسابه أول الامر من قبل اليهود انفسهم ، وفي الدرجة الاولى من سكان اسرائيل . كما أنه أيضاً يتعلق بالمجتمع اليهودي المنتشر في جميع بقاع العالم ، فهو الذي يجعل بقاء اسرائيل ووجودها ممكناً عن طريق تمويله لها ومساندته السياسية لكيانهـا . واني لأذكر على الخصوص المواطنـين الكنديين ومواطني جمهورية الولايات المتحـدة من اليهود لأنهم يتمتعون بالقوة المالية والمركز الاقوى في هذه القضية .

وهكذا ، سنظـــل نواجه هذا السؤال : كيف نحطم سلسلة الكارما ؟ وكيف نكفّر عن الخطيئة التي اقترفناها؟ تلك الخطيئة التي نتجت ، واتفق معك يا سفير في هذا ، من اخطاء سابقة ، عن أخطاء أسبق بدورها أيضاً .

لقد ذهبت إلى معسكرات الـلاجئين في قطاع غزة ، وسمعت الاناشيد التي ينشدها الاطفـال في مدارسهم . فلو أردتَ ان ترى ماذا تعني كلمة « يهودي » لليهود بعد ١٣ أو ١٤ سنة من نفي نبوخذنصر لهم فاذهب إلى قطـاع غزة وستجد بغيتك هناك . ثم ادرس روح العرب وذهنيتهم في المخيمات .

إنهم يقولون نفس الاشيـاء .. ويشعرون نفس الشعور الذي احسه اليهود وظل يعتمل في قلوبهم فيما بعد .

إنهم يقولون : كانت هذه ارضنا ، ونحن مصممون على العودة .

هرتزوك :

إنك ستغفر لي يا سيدي البروفيسور إذا عاودت الرجوع إلى موضوعنا الاول ، وسأعالج قضية اللاجئين للحظات :

كانت النقطة الاولى هي مسألة المقارنة من ناحية اخلاقية بين ما فعلناه نحن وما فعله النازيون بنا . وأعتقد يا سيدي البروفيسور بأنه قد ثبت في أذهان الناس انه كانت هناك

حرب عدوانية ضدنا . وقد اعطيتُ شرحاً تاريخياً مبسطاً لمعركة دير ياسين ، وسأعالـــج مسألة اللاجئين فيما بعد . ولكن ، ان ما افهمه من الاقتباس الذي أوردتُه أنا ومن التزويق الذي جئت به أنت هو انك تعترف ، ايها البروفيسور ، بأن ظاهرة المقارنة ، من بين جميع مثيلاتهـا الاخرى ، لا تنطبق على شعبنا وحده ، بل على اولئك العرب المسؤولين عن المذابح التي شرحتُها بالتفصيل ، والاخري التي استطيع ان اقدم لك لائحة عنهـا . ويمكنك ان تقول إلى حـد مـا ، وعن جميع الامم في العالم ، بأن جنودهـا ، وحتى في حـــالة الدفاع عن النفس ، قد كانوا مجرمين باقتراف الاعمال الوحشية .

توينبي :

لقد ميزتُ بوضوح ـ مع ان هذا التفريق صعب للغاية وإن كان فإنه احـد الاعراف القيمة الضرورية التي جرت عليها المجتمعات البشرية ـ ان هنالك فرقاً بين الايذاء والقتل والتمثيل وجميـع هذه الشائنات التي يولدهـــا القتـــال بين الجيوش النظامية وبين المذابـح التي يقوم بها المدنيون فيما وراء خط القتال .

هرتزوك :

مقبول ... مقبول ... وهذا صحيح .. انني اشير إلى

حوادث غير معينة في التاريخ ... وطبيعي انك عندما تتحدث هنا عن الوحشية لا تكون تقصد الافعال التي تجري مزاولتها بين المحاربين بل الاعمال الوحشية التي تقترفها القوات العسكرية ضد المدنيين . وقد ضمنّت بعض التلميحات ضدنا يا سيدي، وسأعالج هذه على حدة . ولكن ، لنفرض من وجهة نظرك ، وكما تزعم الدعايات الغربية ، اننا قد اقترفنا فظائع وحشية بهذا الشكل ، فهل تقرّني يا بروفيسور على ان مثل هذا يمكن اسناده إلى كل قطر في العالم ، على أساس انه في وقت أو آخر ، كما قلت في بعض حديثك ، « ليس هنالك مجتمع يمكن الاعتماد على أفراده في ان لا يقترفوا فظائع في وقت استعار الحرب ؟ » وأنا ايضاً اقول ، وحتى في حالة الدفاع عن النفس هل يمكن ؟

توينبي :

إنني أتفق معك في أن معظم المجتمعات قد اقترفت جرائم الوحشية ولكن هذا ليس مبرراً لاقترافها .

هرتزوك :

لم أقل هذا يا سيدي — انني اتفق معك فيه . إن ما أعنيه هو : هل تتفق معي في انه يمكن تطبيق هذا الأصل العام ، وهذه المقارنة الواسعة على مستوى كوني بالنسبة لأي بلد اقترف جنوده فظائع ضد المدنيين أثناء الحرب ؟

توينبي :

نعم . ان الفظـائع هي الفظـائع . والجريمة هي جريمة ، أيا كان من فعلها .

هرتزوك :

ويتفق ذلك يا سيدي ، بل وينطبق تمـام الانطبـاق في حالة الفظائع التي اقترفهـا العرب ضد السكان المدنيين اليهود ؟

توينبي :

ولمَ لا ؟ طبعاً طبعاً .

هرتزوك :

والسود في ايرلندة ؟.. وبالنسبة للولايات المتحدة في سلوكها مع الهنود الأولين ؟.. وبذلك لا يكون حدّ لهذه المقارنة . وبكلمة اخرى :

إن معنى ما قلتـه أنت حسب ما أفهمُه ، هو انه استنكار منك للعنف والفظائع التي يقترفها العسكريون ضد المدنيين . وأن اسرائيل في نظرك ليست منفصلة في ذلك القانون عن الجنس البشري بل انها مجرمة بنفس الجريمـة التي اقترفها الآخرون ؟..

توينبي :

طبعاً . انني لا أعتقد بأن الاسرائيليين يختلفون عن الجنس

البشري ، وليست هنالك عندي أية ميول لا سامية ، تدفعني لأن لا أعتبر اليهود بشراً .

هرتزوك :

يا بروفيسور ، إن ما عنيتُه أنا كان هذا :

انك لا ولن تقول بأن الاسرائيليين يستطيعون أن يزعموا انهم يقفون على مستوى أرفع من الجنس البشري لأن ما فعلوه قد فعله غيرهم في وقت الحرب . وقد فعلتموه أنتم في الدفاع عن أنفسكم ، هل هذا صحيح يا سيدي ؟

الدكتور تويبي :

ألا يكون غريباً مني أن أدافع عن الالمان والنازيين على الخصوص ؟ مع انني رأيت بلادي تعاني العدوان الالماني مرتين ، ولكن الالمان أيضاً بشر ، وما فعله النازيون الالمان ليس عجيباً شاذاً ، أعني عجيباً بمعنى انه ليس غير طبيعة بشرية عامة وبالمعنى الذي فسره السفير !!

انه أيها السفير شيء موجود في طبيعة الجنس البشري (وعلينا أن نحطمه) هل تدرك ذلك !! وربما تساءلت عما دعاني إلى حشر قضية الاسرائيليين في هذه العلاقة ؟

لقد كان ذلك لمجرد توفر الحقيقة الفعلية ... لقد كنت اكتب حول القضية الفلسطينية وحول قضية اليهود والمسيحيين في العالم .

هرتزوك :

والذي ينطبق على كل امة اخرى .

توينبي :

وكما قال السفير ،

لقد ذكرتُ في مواضع مختلفة من كتابي أمثلة اخرى أخذتها من البريطانيين والفرنسيين كذلك .

هرتزوك :

حسناً . تراني أستطيع ، من حيث تلك النقطة ، أن اقول بالمعنى الاكاديمي : انني لأشعر حين احلّل الأسانيد الثقات في التاريخ بأن هنالك تدريجاً ما ، وأشعر أن النازيين قد فعلوا ، فيما فعلوه ، شيئاً غريباً في نوعيته تماماً . ترى هل يمكن مقارنته بأيّة فظائع أخرى جرت في التاريخ البشري ؟ كيف أستطيع ان أشرح لكم ذلك من حيث المعايير الاخلاقية ! خذوا التاريخ وفتشوا فيه عن الناس الذين قاسوا آلام الجحيم ، أي معسكرات الابادة في أوروبا ، وعند خروجهم .. حاولوا الذهاب إلى اسرائيل ، وكانت « فلسطين » في ذلك الوقت .. كان كثير منهم على ظهر السفن في طريقهم إلى هناك .. وحاصر الاسطول البريطاني سفنهم .. والقى عليهم القبض .. وأعيدوا إلى معسكرات قبرص .

والآن ، دعنا نأخذ رجلاً من هؤلاء مثلاً .. إنه في سفينة تعدو هاربة من الجحيم .. وقد رأى ما فعله النازيون به . كيف لا تندهش يا بروفيسور إذا تحدثت مع هؤلاء في الوقت الحاضر !

لقد كان الشعور الذي انتابهم تجاه السلوك البريطاني شعوراً بالقسوة والنقمة عليهم من وجهة سياسية . لكن شعورهم هذا تجاه البريطانيين لم يعادل شعورهم تجاه الالمان .

إن نفس هؤلاء الذين مروا بالتجربة النازية ، وذوي العاهات الذين هربوا منها لم تكن أرواحهم قلقة إلى حد يجعلها تقول ان أي شرّ في الدنيا يبلغ درجة الشر النازي ومستواه . هؤلاء يا سيدي هم الشعب الذي تقول : لقد أخذوا ما فعله النازيون بهم فطبّقوا شبيهه على العرب .

واعتقد انه يمكننا ان ننصرف عن هذه النقطة ، بالاذن منك ، الآن . واظن ان الحقيقة التي قررتها يا بروفيسور على انها قرينة عالمية تبدو للناس وليست أكثر من كونها وجهة نظر متميزة لديك وحدك . إن اسرائيل واحدة ... أو دعني أضع ذلك بشكل آخر : إن اسرائيل ليست منفصلة عن بقية شعوب العالم في هذا المضمار .

توينبي :

الأمر ملتبس حيث يكون هنالك اختلاف في سلوكها عن سلوك الناس الآخرين أو الشعوب الاخرى ، نعم .

هرتزوك :

بعبارة اخرى ، كانت هذه الاعمال الوحشية موجودة تحت حكم النازي وفي مختلف بقاع العالم ، وقبل ان يأتي النازيون وبعد ذهابهم أيضاً .

واسمح لي يا بروفيسور ان اقترح ان نتعدى في بحثنا إلى النقطة الثانية ... حيث أراني ملزماً بأن أضيف ملاحظة فردية خاصة هي : « قضية امتلاك الاراضي . »

يسرني يا بروفيسور ان أقول : ان أية دراسة للانتداب البريطاني وسجلات الطابو تشهد ان سبعين في المائة من الاراضي التي هي الآن « اسرائيل » كانت تمتلكها الحكومة (الارض الميرية) . لقد كانت من ممتلكات الحكومة والانتداب ، ومن الممتلكات العثمانية في السابق .. إنها لم تكن من ممتلكات أية شخصية معنوية عربية في فلسطين منذ قرون . هذا ، والعهد الوحيد الذي كانت فيه فلسطين كياناً سياسياً هو فترتان : الاولى تحت الحكم اليهودي ، والثانية أثناء خضوعها للصليبيين . ولكن ، مالنا وهذا .. انه ليأتي في دراسة مقبلة . لقد وعدنا ، وأعني حكومتنا ، ولا زلنا

مستعدين ، بأن ندفع تعويضات كاملة عن الملكية الفردية التي تم أخذها بفعل الحرب . وقد أبلغنا هذا إلى هيئة الامم المتحدة . وبهذا الخصوص ، أراني أستطيع التصريح رسمياً « كسفير لدولتي » بما اسلفت ، مع انني موجود في هذا الاجتماع بصورة شخصية .

والآن : يا بروفيسور ، دعنا نعود إلى العلاقة التاريخية .

يقتبس الناس عنك ما قلته من انه « ليس لاسرائيل حق تاريخي » . واعني الشعب اليهودي في اسرائيل . فهل اذكر بعض الحقائق بهذا الخصوص ؟

١ — إن استمرار اقامة اليهود في أرض اسرائيل لم ينقطع في أي وقت من التاريخ . وبأمكاني أن أثبت ذلك من سجلات التاريخ قرناً فقرناً .

٢ — إن العودة إلى اسرائيل كانت محوراً رئيسياً في معتقدنا الديني وكل ما يلهم شعورنا الوطني ، وفي صلواتنا .. أيضاً ..

٣ — إن المجتمع الدولي قد اعترف بسلامة هذا الحق : تصريح بلفور — عصبة الأمم — هيئة الأمم المتحدة .

٤ — وحتى العرب أنفسهم قد أقروا بذلك في أول الامر .. وهنالك رسالة من الامير فيصل إلى الدكتور وايزمن ،

والامير فيصل هو الذي رأس الوفد العربي إلى معاهدة فرساي ، وهناك تم الاتفاق بينهما . وهنالك كتاب آخر بخصوص ذلك الاتفاق كتبة الامير فيصل أيضاً . وهو يصرّح فيه ، بأنه يرحب بعودة اليهود إلى فلسطين .

وهكذا ، لا يغدو لك الحق في أن تقول بأن هذا الحق قد أصبح عتيقاً بالياً عفا عليه الزمن منذ سنة ١٣٢ .

ليس الأمر على تلك الصورة ... لقد ظل هنالك ، ارتباط مستمر في الآمال والمطامح قرناً بعد قرن . وقد تم خلق بعض أفكارنا الدينيّة وتصانيفنا هناك ، من المشناح ، الى تلمود اورشليم ، ومدراش ، والترقوم ، والماسورة ، ودون ذلك إلى شلشا انروش ، والذي هو الدستور الاصلي للشريعة اليهودية .

كل هذه قد تم انجازها قرناً بعد قرن . كما انها تدل على اقامة دائمة في فلسطين . وبين كل وقت وآخر كان شعبنا يأمل في أن ينال الاستقلال ، الا ان تلك الآمال لم تنجح . وقد كان هنالك شعور جديد في سنة ١٩١٧ فبدأ بحركة جديدة وقوة دفع جديدة ، وان كانت قد ظلت في نفوس اليهود منذ القدم .

لقد ذكرتَ اول مستعمرة في فلسطين يا بروفيسور ، وحدّدتَ زمنها بـ سنة ١٨٨١ ، بينما أستطيع ان اظهر

لك وثيقة عن اقامة مستعمرات أو جاليات يهودية في مدن فلسطين منذ القرن العاشر بعد الميلاد .

إننا (اليهود) نشعر ان البعث الجديد لدولة اسرائيل الثالثة يتضمن خلود النبوءة .

هذا هو تاريخنا طوال العصور !!

لقد عبرنا « وادي الهلاك » ، وها نحن الآن بعناية الرب المقدسة قد بلغنا إلى « جبال الموعد » .

إننا ننظر إلى تاريخنا على هذا الضوء . إنه لا سرقة فيه .

وانت تقول يا سيدي بأننا « بقايا متحجرة » . قد قضي علينا في تلك المغامرة الجريئة ...

كلا . لقد ظلت الحياة تعتمل في نفوسنا وظالنا خلاقين مبدعين . فاسمح لي يا سيدي ان ابدي بعض دهشتي من انك لم تشر في كتابك إلى ناحية الإبداعية اليهودية على الاطلاق . وبالمناسبة أيضاً ، ان اينشتاين المعروف هو أحد ذلك الصنف المتحجر المتصل !!.

توينبي :

لقد أثار السفير قضيتين في هذه اللحظة :

الأولى تتعلق بزاعم أو « حق » اليهود في فلسطين .

والثانية عن استعمالي كلمة « متحجر » التي وصفت بها اليهود كما وصفت شعوباً أخرى كالبارسيين مثلاً ، والمذاهب

المسيحية المختلفة ، وإلى حدٍ ما ، الإغريـق انفسهم .

هرتزوك :

وها انك تفرّق بين حالتي التحجر والبلى ، فتعتبرنا نحن والبارسيين من الصنف المتحجر ، أما كلمة بالي فانك تطلقهـــا على الاغريق والاتراك والنروجيين والارلنديين . ولست الآن بمعالج المشاكل الارلندية ، فإن لدي ما يجعلني أشعر بأنهم (أهلها) سيديرون أمرهم بأيديهم ، ولذلك فأنني سأتركه لهم .

توينبي :

وانا أعتقد ان الاسرائيليين يستطيعون ان يتدبروا أمرهم أيضاً .

دعني اكون جدّياً الآن فأعود إلى بحث قضية حق اليهود .

إن ما يسترعي الانتباه بخصوص اليهود ، والذي افرض انه جعل المجتمع اليهودي على الشكل الذي هو عليه في الوقت الحاضر ، وكما يقول السفير بحق ، هو حقيقة انهم لم يفقدوا ذاكرتهم عن وطنهم الأم . بخصوص هذا وحده كان اليهود شعباً استثنائياً من بين جميع الشعوب الذين تم استئصالهم وطردهم من بلادهم على يدي الآشوريين والبابليين منذ أعصر خلت في القرن الثامن ثم السادس قبل الميلاد . وحتى المملكة الاخرى التي كانت تعتنق نفس الدين ، (مملكة اسرائيل) لم تستطع ان تحتفظ بشخصيتها الخاصة في المنفى

كشعب مملكة يهوداً ، كما نعرف ان العشر قبائل قد انقرضت وتلاشت . أولم يكن اليهود البريطانيون مصيبين في القول بأن البريطانيين قد فقدوا عشر قبائل أيضاً ؟

إنني أعتقد انهم كانوا مصيبين في ذلك .

وفي الوقت الحاضر : ان مملكة اسرائيل ممثلة ببضع مئات فقط من السامريين . بعضهم في الاردن وبعضهم الآخر في دولة اسرائيل الحالية .

وقد اختفى جميع سكان سوريا الذين كانوا يعاصرون مملكتي يهودا واسرائيل بينما حافظ اليهود على هويتهم الخاصة . لقد حافظوا عليها في ذاكرتهم .. ظلوا يتذكرون فلسطين . واظنني قد ذكرت ان عرب فلسطين اللاجئين الحاليين سيكونون يهودَ الوقت الحاضر ويهود الغد ، لأنهم الآن في نفس الحالة العقلية التي كان فيها اليهود بعد نفيهم على يدي نبوخذنصر . ويبدو ان فلسطين هذه ذات سحر خاص في نفوس الشعوب ، وانها إذا عاش فيها شعبٌ ما كالعرب الذين قضوا مدة اطول مما قضت أكثرية اليهود ، فإن مشاعره لا يمكن إلا أن تحتفظ بالحنين الى تلك البلاد .

وعلى كل حال ، دعنا نتكلم عن الزعم .

إن هذا يستدعي القول بأنه : إذا كان هنالك شخص ما ، له علاقة تاريخية وعاطفية ببلدٍ ما ، فان ذلك الشخص

يكون ذا حق في تحرير ذلك البلد ، ولكن بشرط واحد وهو أن لا يُبعد حقوقَ الآخرين إلى نقطة تسبب لهم الصعوبات والظلم والأذى ... وأعني بالآخرين سكان ذلك البلد الموجودين . وهنالك أيها السفير شيء في القانون العام ، واظنه يتوفر في جميع فروع القانون ، اسمه قانون التحديدات . وهو ، على أمل أن يخلق أقل كمية من الصعوبات والآلام ، يقول :

تزول المطامع الشرعية بعد كذا وكذا من الوقت .

وهكذا ، إذا اخذت سنة ١٣٥ بعد الميلاد ، وهو الوقت الذي كان قد تم فيه اقتلاع جذور جماع السكان اليهود في فلسطين — ما عدا سكان بعض اقسام الجليل — على يدي الرومان ، وأنا لا أدافع عن هذا العمل ، ولا أراني مضطراً لتبرئة ساحة الامبراطور هدريان ، إذا أخذنا ذلك التاريخ وقلنا إن قانون التحديد لا ينطبق على الشعب الذي فقد سيطرته منذ سنة ١٣٥ بعد الميلاد .

فقل لي بالله :

ماذا يحدث لونتريال ؟

لقد كانت للانغلوكيين منذ ٣٠٠ ، أو ٤٠٠ سنة فقط ، أي منذ أقل من ٤٠٠ سنة .

إن فترة زوالهم أقرب من الفترة منذ ١٣٥ بعد الميلاد . فهل تعود اليهم ؟

وهل ستعود انكلترة إلى الويلش ؟

إن ذلك سيسبب مقداراً كبيراً من الآلام ، وكل ما أقوله بخصوص ذلك هو ، ان علينا في تلك الحال أن نرحّل حوالى ٥٠ مليون انكليزي ونطردهم ليكونوا لاجئين !

والآن دعني انتقل إلى تصريح بلفور .

يمكنني ان أقول : ان ضميري غير راضٍ أبداً فيما يتعلق بتصريح بلفور ... وقد ذكرت منذ لحظات انني كنت شاباً في ذلك العهد ، وكنت اشتغل لمصلحة البريطانيين في الحرب العالمية الأولى ، وفي ميدان الامبراطورية العثمانية التي كانت تشمل فلسطين في ذلك الوقت ، طبعاً . ولهذا فإن لديّ معلومات ثابتة دقيقة عما حدث في ذلك الوقت ، كما ترون .

إنني أنتقد تصريح بلفور ، وأنتقد أكثر منه سلوك الانتداب البريطاني طوال الثلاثين سنة التي تلت ، لأنني اعتقد بأننا ـ البريطانيين ـ لم نتخذ خطاً واضحاً ، أو نرسم في رؤوسنا سياسة معينة طوال تلك المدة . وكان ذلك عسيراً على اليهود والعرب على السواء . إلا أنه مهما كان الأمر ، فتصريح بلفور لا يكاد يعالج أو يتركز حول نقطة « الحق » هذه .

إنه في حقيقته وثيقة قصيرة ، واظن الكثير منكم يحفظه

عن ظهر قلب ، وإن كنت أنا لا أذكر كلماته ذاتها .

انه يتألف من عبارتين : الأولى ، تقول ان بريطانيا تتعهد بابقاء ومساندة (أو شيء من هذا القبيل) وطن قومي يهودي في فلسطين .

وأما العبارة الثانية فقد أدخلت مشروطة بأنه لا يجوز أن يلحق بمصالح السكان الموجودين في حينه أيّ أذى . وكذلك في جميع الأراضي التي اطلق من أجلها تصريح بلفور سنة ١٩١٧ . وكان أكثر من ٩٠ بالمئة من هؤلاء السكان من العرب .

وانني لأوجّه كل اللوم إلى تصريح بلفور لأن كلمة « وطن » كانت غامضة فيه .

وقد تم إيضاحها بعد . وأذكر الآ انني رأيت ذلك الايضاح كموظف موقت في سلك وزارة الخارجية البريطانية . لقد اوضحت تماماً وقبلها الدكتور وايزمن في حينه . وكان الايضاح على أساس ان كلمة « وطن » لا تعني « دولة » . لأنه إذا أخذنا كلمة « وطن » بمعنى « دولة » فإن العبارة الأولى من تصريح بلفور تغدو لا معنى لها ، كما انها لا تتفق مع العبارة الثانية . وستظهر تلك العبارة بمعنى المجاملة لقوى مساوية (العرب واليهود) والخضوع المساوي من الحكومة البريطانية التي أعلنت ذلك التصريح كما أعلنت « انه يجب

ألا يلحق بحقوق أو مصالح السكان الموجودين في البلاد « أي أذى » . وأنا أظن ، وكذلك اي شخص آخر يفترض مثلي ، انه كان لليهود مطلب في وطن قومي يأخذ شكل دولة يهودية على الحصر .

ولكنني لا أصدّق بأن ذلك الوطن القومي يمكن دون طرد — كالطرد الذي رأيناه أخيراً — لـ ٩٠٠ ألف لاجيء ، وإضرار بمصالح السكان الحاليين في البلاد !!

ربما كان « ذلك الوطن قد أخذ شكل دولة يهودية تضم العرب واليهود على حد المساواة فيما بينهما . ويمكنك أن تقول ، ان ذلك احتمال نظري فقط ، وأنه في الحين الذي يتم فيه فتح أبواب البلاد للهجرة اليهودية حسب شروط لم يضعها أهل البلاد الموجودين أنفسهم بل قررتها الحكومة البريطانية ، فإن الموقف لا بد وأن يفلت من اليد .

إنني أعتقد جازماً ان جميع العهود والشعوب في فلسطين منذ سنة ١٣٥ بعد الميلاد قد تسامحت واعترفت بحق اليهود في أن يعيشوا في فلسطين . وكان هنالك دائماً في القدس يهود أتقياء يتدارسون الشريعة في تلك البقعة الاكثر قدسية عند اليهود في العالم . لقد كان العهد التركي يتسامح في ذلك ، ولست أدري ماذا فعل الصليبيون الذين لو لم يتسامح أي

شخص ، لفعلوا هم ، ولكنني لا أعرف ذلك . وقد ظل الحال كما هو خلال أعصر التاريخ على الاجمال . والآن : كان « الوطن القومي » هو توسيعٌ لذلك ، أي خمسون يدرسون الشريعة . هل كان هنالك (٥٠) الف يهودي في ذلك الوقت ؟ وحوالى (١٢٠٠٠) مستعمر زراعي ، كما اظن ، في سنة ١٩١٨ ؟.. ان هذا في حقيقته ليس أقل من « شكل » لوطن قومي يهودي ... أما هدف الحركة الصهيونية ، كما يقول الدكتور وايزمن ، والحكومة البريطانية الممثلة في شخص بلفور فقد كانت : توسيع الأساس مع صبغ الوطن القومي اليهودي بصبغة حديثة عن طريق السماح لعدد أكبر من المهاجرين ، وجعل اليهود اصحاب حق في الاقامة في فلسطين ، ولكنْ ضمن اعداد معينة ، عدد محدود فقط .

وعلى هذا الأساس تعهدت بريطانيا بعدم إلحاق الأذى بمصالح الموجودين في تلك البلاد . خذوا الجامعات مثلاً وخذوا جهاز المدنية الحديثة كذلك .

إنني أوجّه لومي إلى تصريح بلفور لأنه بهذا المعنى ، يستطيع أي محام أن يثبت أنّ التعهدين المتضمّنين في ذلك التصريح كانا متناقضين .

يجوز انه كان عسيراً على عين بصيرة الحكومة البريطانية

أن تنفذ إلى مثل هـــذا ، وربما اننا لا نستطيع لوم الحكومة البريطانية لعجزها عن إبصار ذلك في تلك اللحظة ، ومع هذا فأنا ألومها في الحالتين .

ولا شك ان المجتمعين : العربي واليهودي ، كانا سيفسّران ذلك التصريح بطريقتين متناقضتين . فقـد تم جعل فلسطين في عهدة الانتداب من اجل ما يمكن تسميته : إعدادها للحكم الذاتي والاستقلال الكامل الناجز في الدرجة الاولى . ولما كان العرب أكثر من تسعين في المئة من السكان فقد كان طبيعياً ال يعتقدوا انه عندما يتم استقلال فلسطين فانها ستكون دولة عربية ذات أقلية يهودية .

أما اليهود ، وبعضهم على الاصح — حيث كان هنالك تنازع بين مختلف طوائفهم ، بين طوائف الصهيونية وطوائف الآخرين حول هذه المسألة — فقد فسروا كلمة «وطن قومي» على انها مرحلة وسطى تؤدي إلى خلق دولة يهودية . لقد صرح بعضهم بذلك وقالوا : وحتى إذا لم يكن هذا ما عنتْه بريطانيا ، فانهم سيستعملونه كرافعة تسندهم في الاستحواذ على دولة يهودية في آخر الأمر . وانه لطبيعي انني لا ألومهم كثيراً على هذا ، ولكنني ، على كل حال ، أراني مضطراً لأن اقول : انني اعتقد ان تصريح بلفور كان مصيباً في وضعه هذا التحديد .

ويمكنكم ان تقولوا ، ان هذا يشبه قضية رطل اللحم ونقطة الدم في رواية تاجر البندقية لشكسبير ، اي انه لو كان لن يلحق أذى بمصالح الـ ٩٠ بالمئة من المقيمين غير اليهود فإنكم لن تستطيعوا بناء وطن قومي .

نعم ، باستطاعتكم ان يكون لكم وطن ثقافي ولكنه، لن يكون بوسعكم الحصول على وطن سياسي ، حسب تلك الشروط التي قبلتها المنظمة الصهيونية في حينه بعد ان وضعها البريطانيون ، والتي أعطت لليهود شيئاً قريباً مما تعشقه قلوبهم . وإلا فانها تكون قد ضمنت ، مصالح السكان الموجودين في تلك البلاد على الورق فقط .

والضمان واجب يقتضي القيام به مراعاة جميع الأسس القانونية والأدبية ، لا مجرد الكلمات على الورق .

هرتزوك :

أما فيما يتعلق بقانون التحديد يا بروفيسور والذي تقول ان له مضموناً قانونياً معيناً ، فهو أيضاً مضمون تاريخي في هذه القرينة .

وهنا أراني أود أن أستشهد بكلماتك يا بروفيسور في كتابك : تاريخ الدراسات ...

انك تقول : ان اليهود يعيشون على أنهم لا يزالون نفس الشعب الأجنبي ، بعد ان فقد كل من الفيتيقيين والفلسطينيين

شخصيتهم كباقي الأمم الاخرى . لقد وقع السوريون القدماء وجيران اسرائيل في بوتقة الصهر فزالوا مع مرور الزمن ، بينما أثبت شعب اسرائيل انه غير قابل للذوبان في هـذه الوصفة الكيماوية التي أجراها التاريخ والدول الكونية ، والمذاهب العالمية ، وانتقال الامم !

إن هذا وصف فصيح جداً إذا سمحتَ لي ان استعيره لأصف به البعث الجديد لإسرائيل . أما قانون التحديد هذا ، فلم يعترف به التاريخ في هذه الحال . إننـــا ، يا برفيسور ، الشعبُ الوحيد حالياً في الشرق الاوسط الذي نتكلم نفس اللغة ، ونعتنق نفس الدين ، ونعيش ذوي آمال واحدة واستمرار روحاني واحد كما كان يفعل آباؤنا الذين نُفوا من هناك منذ آلاف السنين ! وليس هناك شعب آخر قد حافظ على هـذه الميزات من سنة ١٣٢ حتى الوقت الحاضر !

توينبي :

لقد اعترف بذلك القانون فعلاً في التاريخ . اولم يكن بهذا المعنى العملي له ، انه في سنة ١٩١٧ كان أكثر من ٩٠ بالمئة من سكان فلسطين ليسوا يهوداً ؟ هل هذه نقيصة في التاريخ أو انها حسنة فيه ؟ هنالك عمل آخر من نقص التـــاريخ ؛ ألا وهو استمرار تذكر اليهود لفلسطين ،

ذكرى فلسطين للعودة اليها . وينتبه تصريح بلفور لكلتا النقطتين فيقول .....

هرتزوك :

نعم ، نعم ، انني أعترف بذلك . اما فيما يتعلق بقضية الترابط التاريخي فقد اعترفتَ يا بروفيسور ان هناك استمراراً لبقاء مملكة يهوذا في أرض اسرائيل عبر القرون .

وهنالك حقيقة مهمة ... أيضاً وهي ان العرب لم يملكوا فلسطين ككيان سياسي مستقل ظلت ادارته من قبل خلفاء بعيدين عنه لعدد من القرون . لقد انتقل ذلك القطر من يد إلى يد ، وقد تم فتحه (١٣) مرة متتالية !

وأثناء ذلك الوقت الذي صحا فيه الشرق الاوسط على « النهوض » عند الأمم الحديثة ، وهي العملية التي ابتدأت بعد الحرب العالمية الاولى ، والتي لا تزال حتى وقتنا الحاضر ، اعترف الضمير الدولي برغبة الشعوب العربية في توحيد امتهم واستقلالها . كما اعترف برغبتهم في انجاز ذلك الاستقلال بعد بقائهم مستعمرين أو خاضعين لغيرهم طوال قرون كثيرة . لقد نشأت ثماني دول عربية تغطي مساحة تكاد تبلغ مليون ميل مربع . وقد حصل العرب على الاستقلال وتم لهم هذا الوضع الراهن دون سابقة ، وربما لم يكن لهم ذلك في أيام خلفائهم الذهبية . وقد كان ضمن ذلك الإطار في

الشرق الاوسط ان تم الاعتراف بأن الشعب اليهودي يرتبط بتلك البلاد ، وانه عاش بغية عودته اليها فيجب ان يؤسس لنفسه استقلالاً وحريّة في ارض اسرائيل .

هـل لديك يا سيدي تفسير لتصريح بلفور يستند إلى أساس عملـك المشترك في الحكومة البريطانيـــة في ذلك الوقت ؟ انك ، لا ريب ، تعترف بأن اللورد بلفور نفسه ، ولويد جورج ، رئيس وزراء حكومة جلالته ، ووِنستون تشرشل يعرفون ماذا عنوا من تصريح بلفور . وقد اعلنوا ذلك بصراحة طوال سنوات . وحتى الامير فيصل الذي قابلته في مؤتمر الصلح قد اعترف ، بكل وضوح ، بهـذا التفسير .

تويتبي :

ليس بدولة يهودية .

هرتزوك :

حسناً ليس لدي الميثاق في الوقت الحـاضر ولكنهـا متضمّنة بكل تأكيد . لقـد عرف اولئك المسؤولون عن تصريح بلفور هدفه وحدوده بكل وضوح . إنه يتحدث عن الحقوق المدنية والدينية للسكان الآخرين ، ولم يكن أي مجال للنقاش في ذلك .

والنتيجة الرئيسية هنا أن الشعوب العربية قد حصلت على

السيادة في ثمانية أقطار وفي ملايين من الاميال المربعة ، فلا ينبغي لهم (العرب) ان ينظروا إلى الشعب اليهودي ذي الدولة التي تبلغ مساحتها ٨ آلاف ميل مربع بعين الحقد بينما تستطيع هذه الدولة أن تعيش بينهم وتتعاون معهم بسلام .

والآن ، لقد كان الانتداب في الأصل يتعلق بفلسطين وشرق الاردن . وفي سنة ١٩٢١ قطعت اربعة اخماس منطقته واصبحت الاردن مستقلة . ثم طورت استقلالها . ولهذا لن يتوفر لديك محاولة اخرى لأرضاء التفسير العربي ، يا بروفيسور .. ومن ثم وبمرور الزمن تطور الوضع كما تم .

والآن ، إذا نظرت اليه في الوقت الحاضر فإنك تجد اننا لا نملك لا ارضاً ، ولا مصادر مالية ، ولا أية مصادر اخرى يحتاجها جيراننا العرب من اجل التقدم بحياتهم ، اما النجاح والبركة فإنه يمكن ان ينالها الجميع : نحن وهم ، عن طريق التعاون فقط ، لأن في ذلك خيراً لنا ولهم على السواء .

لقد رسم لنا التاريخ مبادىء معينة في محاولتنا معالجة القضية بكاملها في الشرق الاوسط .

لقد ظللنا نرجو خلال العصور ، واعتقدنا ان عودتنا ستأتي ، وان استقلالنا سيعود ، واننا ضمن ذلك الاستقلال يمكننا أن

والشروح التي قال بها اولئك الرجال المسؤولون عن التصريح وكذلك ، الرأي العالمي المعاصر في حينه ، وفي السنوات التي عقبت بعد ذلك !! واظنك ستوافقني بكل تأكيد على ان هيئة الامم المتحدة قد اتخذت قراراً في كانون الأول سنة ١٩٤٧ ، وقالت بأنه يجب ان تكون هناك دولة يهودية في فلسطين .

توينبي :

كما انها بعد ذلك اتخذت قراراً بعودة اللاجئين العرب إلى اسرائيل أيضاً .

هرتزوك :

انهم (في هيئة الأمم) لم يتخذوا قراراً من هذا القبيل يا سيدي . فهل تريدنا ان نبحث ذلك الأمر الآن أو نتابع بحث قضية « التحجر » ؟

توينبي :

نعم ، اود بحث هذه المسألة اولاً .

هرتزوك :

لقد انشأت الجمعية العامة لهيئة الامم المتحدة سنة ١٩٤٨ لجنة توفيق لقضية فلسطين يكون من شأنها معالجة جمل القضايا التي اثيرت بين اسرائيل والدول العربية . ويكون من صلاحية افراد تلك اللجنة ان يقوموا بمهمة الوسطاء . كما انه

طُلب الى الفريقين — العرب واليهود — في القرار نفسه ، ان يحاولوا الاتصال المباشر فيما بينهما بغية ايجاد حل لجميع تلك القضايا . ويتضمن نص هذا القرار إشارة الى مشكلة اللاجئين وكان على اللجنة ان تدرس فيما إذا كان هنالك امكانية « اعادة » أو « توطين » أو « تعويض » اللاجئين ، على ان يكون ذلك ضمن القرينة العامة للقضية برمتها . والقرار يتحدث عن اولئك اللاجئين الذين يفترض ان اعادتهم خطوة عملية ، كما انه يتحدث عن اولئك الذين يَودون الحياة في سلام . وقد كف هذا القرار عن البقاء. نعم مات . مات فعلا . وذلك لأن العرب لم يعلنوا ، ولو مرة واحدة منذ سنة ١٩٤٨ ، انهم سيعيشون مع اليهود بسلام .. لقد رفضوا المفاوضة المباشرة معنا .. وقد انشلت اعمال لجنة التوفيق لاكثر من بضع سنوات لهذا السبب . فما هو موقفنا من هذا ! إن قضية اللاجئين العرب يا بروفيسور ، قضية واحدة من مجموعة كبيرة من قضايا اللاجئين في العالم . وانني لأظن ان حوالى ٣٥ مليون انسان قد تم طردهم منذ سنة ١٩٤٠ . هنالك كوريا ، وفيتنام ، والمانيا ، وفنلندا ؛ وجميعها كانت فيها قضايا لاجئين ، إلا انه قد تم التوصل إلى حل تلك القضايا بشكل كامل أو جزئي على كل حال . ولم يجر حل أية قضية منها عن طريق

الاعادة ، بـــل عن طريق الامتصاص الخارجي . والآن: اليك ما قلناه نحن .. لقد قلنا :

اننا مستعدون لدفع تعويضات كاملة ، وقلنـا أيضاً : اننا مستعدون للنظر في الاعـــادة ضمن حدود لمّ شعث العائلات المشطورة . ولكن المشكلة لن تتقدم على طريق الحل ابداً ما لم تنظر الحكومات العربية بعين التعاون بغية تخفيف آلام اولئك اللاجئين . واود هنا ان اذكر بعض الارقام . فالحقيقة ان اللاجئين حسب احصائياتنـا الرسمية لا يتجاوزون الـ ٥٥٠ الف انسان . ولدينا ما يشهد بشكل قطعي ان حوالى ١٦٠ الفاً منهم قد تم امتصاصهم . وهذه مشكلة فريدة من نوعها !!

ليس هنالك صعوبة اقتصادية . وقـد صُوّت في هيئة الامم المتحـدة على الاموال اللازمة التي ستكون من بنك الاقراض الاميركي لحكومة الولايات المتحدة .

وليس هنالك مشكلة اجتماعية ، لأن اللاجئين يعيشون بين شعبهم نفسه . والعربي الذي يعيش في مخيم في الوقت الحاضر في شرق الاردن لن يقبل الحياة في بريطانيا . انه يعيش في محيطه ذاته ، مكوّناً جزءاً من بيئة القوميـة العربية المتصاعدة ، وفي جو عام يتناسق من حيث الدين والثقافة والسيكولوجية مع ما كان يعيش فيه من قبل . ولن يتقدم حل المشكلة ما لم تتعاون الحكومات العربية من اجل بلوغ حل انساني لها .

وقد لاحظتُ انك انت نفسك يا بروفيسور ، قد انتقدت الحكومات العربية ، وكان ذلك صواباً منك في أول المناظرة ، لماذا لا يقبلون الوضع على انه . وجود طفيـــلي ؟ لماذا لا يقرّونهم في مزارع وقرى وبيوت مستقرة ؟ لماذا يبقونهم سلاحاً سياسياً ؟

انت يا من قلبت التاريخ بحثاً ودرساً وتمحيصاً لحوادث آلاف السنين ، هـل تعرف سابقة واحدة ظل فيها هناك من يحتفظ ببضع مئات الالوف من الناس كرهائن سياسيين في معسكرات ؟ طفيليين ! لا مستقبل لهم ! يخمدون كل تعطش للخلق عندهم ! ولأي غرض ؟ لمجرد ان يكونوا على استعداد لأن يتخذوا مخلباً سياسياً ، او واسطة لتنفيذ برنامج نهـائي لابادة اسرائيل ، لا سمح الله . هل الواقع هو غير هـذا التفسير ؟ هل اطلعت على تقرير الامين العـام لهيئة الامم المتحدة في العام الفائت ؟ انه يرى الحل الصائب من ناحية ارقام اقتصادية لانعاش المنطقة . ونحن ، بطبيعة الحال سنقوم بدورنا في هذا الخصوص .

اننا منزعجون جداً لوجود هذه المشكلة الانسانية . ولكنه ليس في متناول يدنا ان نحلها . ان في اسرائيل الآن حوالى ١٠ بالمئة من سكانهـا من العرب أي ٢٠٠ الف شخص ، وهم يتمتعون بجميع الحقوق التي يتمتع بها مواطنوهم اليهود الآخرون . هل تريدنا يا بروفيسور ان نستقبل في وطننا

اناساً ربوا وتغذوا بالكراهية طوال ١٣ سنة ، على اساس قرار اتخذ سنة ١٩٤٨ ، يتحدث عن اولئك الذين يرغبون في المعايشة بسلام ؟ لقد نشأوا على الكراهيـــة والحقد ، والتدمير . هل نأخذهم إلى دولتنا بينما هنالك ١٠ بالمئة من السكان العرب حالياً؟ ولماذا ؟ لكي يزرقونا ؟ سيكونون مصابين بالشيزوفرانيا . نأخذهم من بيئتهم العربية الكلية ، حيث يستطيعون ان ينتجوا ، من ناحية اقتصادية واجتماعية ودينية ، بدافع من تربيتهم ، ونجعلهم اقلية في دولة يهودية !!

وهل يساعد هذا في حل معضلة الشرق الاوسط ؟

هنالك اموال ، وهنالك ارض ، وهنالك ماء ... أي كل المتطلبات المتوفرة . هذا جزء من كرم الاخلاق الانسانية التي تشير اليها يا بروفيسور .

يا بروفيسور توينبي : في سنة ١٩٤٨ انـدلعت حرب العدوان فخلقت قضيتين اثنتين من قضايا اللاجئين ، واحدة تتعلق بحوالى ٥٥٠,٠٠٠ لاجىء عربي ، والاخرى بـ ٤٠٠ الف يهودي و ٧٠ الف عربي . وقد حللنا المشكلة الثانية . لقد امتصصنا ٤٠٠ الف يهودي من الاقطار العربية حيث ظلوا في تلك الاقطار مدة اطول من المـدة التي بقيهـــا عرب فلسطين فيها . لقد تقبلناهم اخوة لنا .. وكذلك استقبلنا ٧٠ الفـاً من اللاجئين العرب في بـــلادنا . وهم اولئك

اللاجئون العرب الوحيدون الذين نالوا الابتعاد عن قوائم الاحسان ، لأننا شاركناهم في اقتصادنا .

أما المشكلة الأخرى للاجئين فقد ظلت على حالها لم تتقدم خطوة واحدة ، ليس لعدم وجود امكانية لحلها ، بل لمجرد ان مشكلة انسانية لا تزال يُنظر اليها مع قرينة سياسية من العداء والكراهية ، ولأن مشاعر هؤلاء الناس الفقراء ومستقبلهم ، وحياتهم نفسها ، يضحّى بها على ماذا !! على مذبح الطموح النوعاني للسيطرة والتحكم في منطقة الشرق الاوسط .

إن كل منحى دولي للمشكلة ، وكل تقرير ، قد حبذ حلها على أساس الانعاش الاقتصادي ، وزيادة الامكانيات الاقتصادية . وسنقوم بدورنا في ذلك بطبيعة الحال . لا شك في ذلك . ونحن نوافقون لأن نرى هذه المشكلة يجري حلها كما تفعل أنت . ولكن المشكلة لن تحل بالصيغ النظرية. إنها لن تحل وهم لا يريدون التحدث حولها معنا . انها لن تحل وهم يظلون مستعدين لتدميرنا . انه منذ بضعة اشهر فقط ، بل في الشهر الماضي يا بروفيسور توينبي ، جاء ممثل اللاجئين العرب إلى هيئة الامم المتحدة ، فما الذي تحدث عنه ؟ تدمير اسرائيل ، وابادة اسرائيل .

ربما أنه قيل له ان يفعل ذلك من قبل حكومة معينة في

الشرق الاوسط . وفعلاً قال ذلك . فهل تقول لنا الآن ما الذي كانوا يتحدثون عنه سنة ١٩٤٨ من العودة بسلام !! هل نأخذهم الآن بعد ١٣ سنة ليفسدوا علينا بلدنا ! انك تسألنا هكذا : انتحروا من فضلكم . دعوهم يغلبوكم من الداخل ، وتغزوكم الجيوش العربية من الخارج . ان هذا يا سيدي ، لم يجر له مثيل في سجل التاريخ الطويل ، ولن تجد أمة واحدة كانت مستعدة لأن تفعل مثله . وحيث انك قلت يا سيدي من قبل ان امتنا تخضع في بعض الصفات للناموس التي تخضع له الأمم الاخرى ، فاننا لن ننتحر ، ولتكن هذه الصفة مشتركة أيضاً .

الدكتور ارنولد توينبي :

أظن ان هنالك بعض النقاط الصائبة فيما قال السفير قبل قليل : واعادة اللاجئين احدى هذه النقاط . اما الاخرى فاستعمال اللاجئين مخالب لغيرهم . واعتقد ان هنالك عدم ثبات او اتساق في الموقف الاسرائيلي بهذا الشأن .

انك تطلب الاعادة لليهود مع ان هجرتهم كانت منذ سنة ١٣٥ ميلادية . والحقيقة انه لم يكن هنالك استقرار سكاني يهودي ثابت في فلسطين ، وإن كنت اتفق مع السفير في انه ظلت هنالك دائماً أقلية يهودية في البلاد ، وأقلية ضئيلة . ولم يعد هؤلاء منذ سنة ٦٣ أو ٦٤ ق.م ، كما

اذكر ، يعيشون على شكل « دولة يهودية » أبداً . لقد طالبت أيها السفير لهم بالاعادة ، ليس على أساس تصريح بلفور ، أو على أساس وطن قومي دون قيام دولة ، بل على أساس أقصى اشكال « الدولة » . ومع هذا أراك في نفس الوقت ، تنكر على العرب الذين طردوا بالقوة من بلادهم – أي من القسم الذي يحتله اليهود في فلسطين – منذ عهد قريب كسنة ١٩٤٨ الشيء نفسه (العودة) الذي تتخذه محوراً رئيسياً لمطالب الشعب اليهودي ذاتها .

إن في هذا تناقضاً عجيباً !!

فكرْ في الأمر .

أما بخصوص اتخاذ اللاجئين كمخالب ... فقد اتاحت لي الظروف أن أتحدث إلى ممثلي الدول العربية خلال بضع السنوات الاخيرة . وأرى أن بيت المنظمة الصهيونية وحكومة اسرائيل لا يعدو كونه من زجاج فيما يتعلق بهذا الأمر . وذلك لأنني اعتقد انه يمكن اجراء بعض المقارنات الصائبة بين اتخـــاذ اسرائيل للاجئين ، اليهود طبعـاً ، كمخالب سياسية ، وبين اتخـاذ الحكومات العربية اللاجئين العرب على نفس الشاكلة .

ودعني اصرّح بأن كلا العملين مجوج لا يستمزجهما من يعيشون في التعاسة ، كما يفعل اللاجئون . وأنا أظن ان كلاً

من سكان اسرائيل ، والصهيونيين ، والدول العربية بجرمة لعملها مثل هذا الشيء الذي يبعث على الاشمئزاز . ولقد أشرت حين الحديث مع ممثلي الدول العربية إلى السياسة التي اتبعتها حكومة المانيا الغربية منذ الحرب ، — وطبيعي انني لست متحيزاً إلى الالمان ، كما انني ، على التأكيد ، غير متحيز إلى النازية . وليس هنالك من سبب يدعوني لأن أكون ودياً نحو الالمان — وكانت الاشارة إلى أن سياسة حكومة المانيا الغربية بعد الحرب كانت اكثر حكمة ، واكثر انسانيـة ، — وانه لأهم بكثير ان يكون المرء انسانياً من ان يكون عاقـلا — من حكومات الدول العربية بعد سنة ١٩٤٨ .

لقد استقبلت حكومة المانيا الغربية حوالى ٦ أو ٨ أو حتى ٩ ملايين لاجيء ، قسم منهم من المانيا الشرقية ، والقسم الآخر من تلك الاقطار أو الأراضي التي كانت جزءاً من المانيا قبل الحرب العالمية الثانية ، والتي هي الآن أجزاء من بولندة والاتحاد السوفياتي . هذا ، مع أن حكومة المانيا الغربية ، حسب ما أعلم ، لم تتخلّ عن حقهـا ومطالبتها بأنش واحد من الممتلكات الواقعة إلى الشرق من الحد القائم لألمانيا الغربية ، والتي كانت المانية قبل الحرب العالمية الثانية . ولست أود من ذكر هذه القضية الاجابة على

ما اذا كان للانسان الحق في استعادة تلك الممتلكات ، سلباً أو ايجاباً . إن هذا لا يعنينا الآن في هذا المكان ، وكل ما أبغيه هو القول إن المانيا الغربية قد فرّقت ، وكانت مصيبة في ذلك ، بين قضية المطالبة بالأراضي التي جاء منها اللاجئون ، وبين ، كيف تسلك مع هؤلاء اللاجئين الموجودين فيها بملء ارادتهم . لقد احتضنتهم المانيا الغربية إلى صدرها ، ورأت من الصائب والاكثر معقولية ، ان تمتصهم دون التخلي عن المطالبة بمنازلهم أو ممتلكاتهم .. لقد اخذتهم وفتحت أمامهم مرافق الحياة لديها وادخلتهم في نشاطها الصناعي ذاته . وانه لأحدُ الاسباب التي تجعل المانيا الغربية مزدهرة ناجحة قوية في الوقت الحاضر كونها قد منحت اولئك اللاجئين فرصة للعمل ، وربما فرصة للسعادة والازدهار . لقد غدا صوتها قوياً بين الامم لأنها فعلت ذلك .

هكذا قلت للدول العربية . لماذا لا تفعلون ذلك ؟ انكم لستم مجبرين على التخلي عن الحقوق العربية أو حق اللاجئين العرب في فلسطين من جراء امتصاصهم ضمن صناعتكم في الوقت الحاضر . وستكونون في مركز أقوى يجعل صوتكم أكثر مسموعيّة حين تطالبون بحقكم فيما بعد . ويؤسفني انهم لم يسيروا في هذا الخط الذي اعتقد من الغباوة ان يهملوه ،

إذ انني اهتم اهتماماً كبيراً بالجانب الانساني فقط . وهنالك ما يجعلني اعتقد ان اسرائيل تعيش في بيت زجاجي حين تسترعي الانتباه إلى هـذا الجانب المعين من سياسة الدول العربية لأن هنالك كما اظن الشيء الكثير الذي يمكن قوله، وخاصة في الفترة التي عقبت الحرب العالميـة الثانية ، عن اللاجئين اليهود الذين وجهوا وجهة سياسية لا انسانية إلى فلسطين بينما كانوا يستطيعون ان ينالوا بيوتاً ومستقبلاً احسن بكثير في اوستراليا مثلاً أو في قارة اميركا الشمالية . انني ارى ، أيهـا السفير ، ان الشؤون السياسية قد تلاعبت ، باللاجئين اليهود ، تماماً كما انه يجري تداخلها مع اللاجئين العرب في الوقت الحاضر . وانا أمقت ذلك في الحالين .

هرتزوك :

اسمح لي أن أقول يا بروفيسور ، انني انتقـد مسلك مختلف الحكومات بعد الحرب العالمية الثانية بخصوص قضية « السياسة واللاجئين » ، حيث لم يكن هنالك متسع لاستقبال اللاجئين . واظن انك قد ذكرت ذلك في نص مـا ، وقلت : « انهم لم يفتحوا ابوابهم للاجئين » . ولكنه يتوجب عليّ ، على أساس المعرفة الشخصية ، ان ارفض بكل حزم أية مقترحات أو مزاعم في أن اليهود اللاجئين قد اتخذوا كمخالب سياسية . لقد جاء عشرات الالوف منهم إلى أقطار

أخرى كالولايات المتحدة وكندا . أما هؤلاء الذين جاؤوا إلى اسرائيل فقد فعلوا ذلك لأنهم كانوا يطلبون الاستقرار . كما شعروا بأنهم يستطيعون التغلب على الآلام التي وقعت بهم على أيدي النازيين ، عن طريق الحياة الخلاقة بين شعبهم نفسه .

أقول هذا لمجرد المقارنة بين المسألتين يا بروفيسور .

وأنت لم تلتفت الى حقيقة مهمة يا سيدي في هذا الشأن .. لقد استقبلنا مليون لاجيء ، يشملون أكثر من ٤٠٠ الف لاجيء من الاقطار العربية . والحق انه كان هنالك تبادل بين السكان يشبه مثيله الذي جرى ما بين الأتراك واليونان بعد الحرب العالمية الأولى .

اننا استقبلنا أكثر من ٤٠٠ الف لاجيء يهودي كما استقبلنا ما ينوف عن ٧٠ الف لاجيء عربي . واستوعبهم اقتصادنا . ويسرني أن أطلعك على وثائق بهذا الخصوص في سجلات هيئة الأمم المتحدة .

يا سيدي : انك لا تستطيع ان تدير عجلة التاريخ إلى الوراء . ولا يجوز لك أن تحاول إبادة شعب . وفي غير مقدورك ان تغذي اللاجئين بلبّن الكراهية سنة بعد سنة . واراني ، أود ان أشكرك يا سيدي ، إذا كان يجوز لي ذلك ، ومن الناحية الانسانية العميقة التي تناولت بها هذه المشكلة والاقتراح الذي قدّمته إلى القادة العرب . انني أدرك الدافع الى ذلك . إن هذا الشكل من الوجود الطفيلي ، هذا الانحطاط الكبير للانسانية يجب أن يُوقف .

فالحقوق شيء والواقع شيء آخر .

وأنا أرجو ان تتفضل بزيارة اسرائيل عندما تجد الفراغ لذلك ، حتى يغدو بمقدورنا ان نريك في نفس المكان ، يا بروفيسور ، اولئك اللاجئين الذين تقبلناهم ، وكيف فعلنا ذلك ، سواء في ذلك اللاجئين اليهود ، او الـ ٧٠ الف لاجيء عربي الآخرين . وحين تكون هناك يا بروفيسور ، وحين تتلمس روح المنطقة ، وبعـــد أن ترى مساحة اسرائيل ، وما فعلناه فيها ، وتشاهد المساحة الشاسعة في الشرق الأوسط ، واسرائيل قسم منها ، وتبصر الفرص الكثيرة جداً لحل مشاكل الاقطار المجـــاورة ، حينئذٍ يسرني بالغ السرور أن أسمع رأيك يا سيدي .

وأراني أقترح ، ما دام الوقت آخذاً في القصر ، أن ننتقل الى قضية « المتحجرين » الشهيرة يا سيدي ، لأنني متأكد بأن الحاضرين ...

الدكتور تويبي :

إن هذا تخلص هزليّ مضحك ، التحجر ، التحجر .

هرتزوك :

كما قلتُ ، يا بروفيسور ، إن هذا النوع من التحجر قريباً ما يدخل الى القاموس الدولي ما دمتَ قد استعملته في النص الذي استعملته فيه . وكما استوعبت من قراءة مؤلفاتك خلال البضعة الأيام الماضية ، أعني الليالي ، فإن هنالك متحجرات وهنالك شعوباً تطلق عليها ذلك بمعنى

« البلى » . ويبدو أننـــا ضمن كلتا القـائمتين : فنحن متحجرون كالشعب البارسي في الهند ، كما اننا حين نبحث صفة البلى نرى هنالك ما يربطنـا بالنروجيين والاغريق والاتراك والايرلنديين ! حسنا ان هـذا يدفعني إلى القول بأنه كان لي رفاق اثناء طفولتي من الشعوب التي تعتبرها بالية بائدة . أما بخصوص البارسي (التحجر) فلا معرفة لي بأحدهم على الاطلاق .

يا بروفيسور ، انني لست مؤرخاً ، ولكنني أقول : أن افتراضك هذا قد تحداه كثير من المؤرخين البارزين ... وهنالك احصائية طويلة للردود عليه ، وهم يطلقون عليه اسم افتراض توينبي ، أو « تجديف وهرطقة » توينبي .

الدكتور توينبي :

ألا أعرف ذلك ؟ بلى .

هرتزوك :

وأنا أفهم ان هنالك أيضاً « البروفيسور والتحجر » . ولذلك تراني أسألك لمجرد الاستيضاح ، فـأنا ديبلوماسي امثل بلادي وتنحصر معرفتي بالتاريخ ضمن حدود الاوقات الراهنة . انني لم أدرس التاريخ بعمق كما فعلتَ يا بروفيسور ولكنني أسألك بموضوعية المؤرخ اذا سمحت .

وأستطيع أن ألخص مفهومنا لحياتنا عبر العصور في آية وردت في الزامير : « لن أموت بل سوف أعيش » ،

والمتحجر لا يموت ، ولكنه لا يعيش أيضاً .

وهنا أفترق وإياك .

ولما كنا لا زلنا أحياء ، وقد بقينا كذلك عبر العصور ، فاننا نلمح يد العناية الربانية في الأمر ، كما رجونا دائماً . ان فينا روح البقاء بعناية الله ، وها نحن نسير قُدماً نحو الادراك الروحي يا سيدي .

ههنا يظهر الفرق الأساسي بيننا : انك تقول لنـــا : « انكم لم تموتوا » ، وهذا واضح طبعاً ، ولكنك لا تلبث ان تضيف : « انكم لم تعيشوا ، ولم يكن لكم بقاء بمعنى الحياة الخلاقة والفكر المبدع . لقد انحرفتم قليلاً عن اتجاه التيار الحضاري فعشتم في جزيرة منعزلة وسط ذلك النهر . وكنتم بين فترة واخرى يسمع العالم صوتكم يصرخ منادياً على السفن العابرة » .

حينئذٍ نجيبك .

كلا ، لقد ظللنا نسير مع التيار بمعنى متميز . وها هو بقاؤنا ، ورجاؤنا ، وأملنـــا ، وتعلقنا ببلادنا به تتحقق النبوءة الأزليـة الخالدة . لكن هذا ناتج ، وأنا لست مؤرخاً كما قلتَ ، فلغيري أن يجادلوك فيه .

إلا أنني سأسألك كإسرائيلي حديث ، يمثل بلاده : « اسرائيل » بعد أن رأى ذلك البلد يولد وينال الاستقلال :

أليس هنالك مغزى خاص تتضمنه الحقائق التاريخية ، من وجهـة نظر التحليل التاريخي الأكاديمية ، وأثنـــاء

دراستك لحقب التاريخ ؟ هذه الحقائق التي لا يمكن انكارها ؟

١ — إننا الشعب الوحيد الذي لا يزال يعيش « الآن » في الشرق الأوسط ، بين جميع شعوب الشرق الأوسط القديمة . ونحن نتكلم نفس اللغة ، ونمارس نفس المعتقدات الدينية .. لقد عاد رحابي يواكيم بيزاكي الذي تمنحه كل تقدير ، ورحابي شيمون باركوشفا الى الحياة . انهما يستطيعان الحياة بيننا في الوقت الحاضر ، ولن يجدا أثراً لذلك التغيّر الذي شتتنا شذر مذر ، فنحن لا زلنا مستمرين في معاناة « التجربة » . أقول هذا لمجرد لفت انتباهك يا سيدي .

٢ — انه بعد اجتيازنا « وادي الموت » طوال أجيال وأنت نفسك قد وصفت في كتابك « رمادَ الهلاك » ، تراثا قد عدنا الى صدر الحياة من جديد ، خالين من كل أدران الضغينة ، وأستطيع أن أؤكد لك ذلك . فبالرغم من كل ما وقع بيننا وبين جيراننا ، العرب ، فانك سترى ، إذا زرت إسرائيل ، انه ليست هنالك ضغينة ما .. وليس هنالك كراهية .. وليس هنالك أسى .. وانما هنالك أمل بالسلام كل يوم ، وكشيء موثوق في قدومه لا بد أن يحل .

ليس لدينا ضغينة تجاه أي من الأمم الأخرى في العالم ، ولا نظمها ، ولا عقائدها التي تعرّفنا عليها وكان لنا معها حديث طويل ، حديث كان خطيراً أحياناً وقد رافقه الويل لنا في جميع الأحيان .

إلى هذه الروح الحية القابلة للحياة والبقاء أعزو أن هنالك أهمية خاصة من حيث التحليل التاريخي .

٣ – انقضت آلاف طويلة من السنين .. وبعد هذه الآلاف جمعنا شعبنا من ٧٠ بلداً .. اليمنيين من أقاصي الصحراء .. في اليمن ، حيث ظلوا منعزلين عن تيار الحضارة طوال ألفي سنة .. مع سكان الكهوف في مراكش .. يهود من الشرق – وغرب اوروبا – ومعسكرات الموت النازية – وأواسط الهند ذات الأدغال .. لقد اجتمعوا معاً ، وأنشأوا أمة في نفس الوقت ...

أليس في هذا الارتباط حيوية مـــا ؟ هل هذا هو التحجر ؟

هل هذا سلوك شعب متحجر ؟

أكل هذه الجزئيـات في شعب متحجر تجتمع معـاً ، وتشعر بأنها كل واحد ؟

وأخيراً ، قضية الديمقراطية ، هذه التجربة .. اننـا الديمقراطية الوحيدة الواضحة للعيان في المنطقة . والحقيقة ان هنالك أمـماً كثيرة من أفريقيا وآسيا تتجه إلينـــا لإرشادها والتعاون معها ، وهم يجدون في تجربتنا ما يجذبهم .

إذن ، هنالك اتصال .

ولهذا فاننا نحمل رسالة الى العالم .

لا كما ارتأيت ، يا سيدي ، في أن رسالتنا قد انقطعت منذ (٢٣٠٠) سنة . وهل لي ان انهي كلامي قائلاً :

ان ما احاول التعبير عنه قد قاله البروفيسور لويس مفورد في كتابه « سلوك الحياة » فهو يقول :

« لقد اكد تاريخ اليهود بشكل دراماتيكي القدرة على التجميع في أية قوة اخلاقية مبنية على هدف معين » .

ألستَ معي في ان قوة التجميع العملية في عصرنا ، جديرة بتقدير واعتبار خاص ؟ اننا نعتقد ان بقاءنا دلالة على السيادة الروحية والقيمة المادية المتوفرة لدينا . اننا نؤمن بالإذلال ، وشكراً للعناية الربّانية التي تشرف على التجربة الواسعة للجنس البشري في الوقت الحاضر ، وتنظر اليه بعين الاهتمام .

ويسرني ان اسألك يا سيدي ، بكل احترام ، فيما إذا كنت تعتقد بأن هنالك أساساً لجميع هذه العناصر التي ذكرتُ ؟

أساساً يمكنك ان تعيد النظر بمقتضاه في مفهومك عنا كشعب متحجر غير خلاق انقرض فجأة فلم يعش ولم يمت طوال الـ ٢٣٠٠ سنة الماضية .

الدكتور توينبي :

هنالك نقطة غريبة حول كلمة « متحجر » هذه التي لم استعملها في الإشارة الى الشعب اليهودي وحده بل استعملتها لفئة كاملة من الشعوب . انها مسألة أكاديمية في حقيقة الأمر ويؤسفني ان أجعلك تتألم من نظريتي التاريخية .

لقد حاولت ان أرسم نوعـــاً من الصورة للحضارة البشرية فوجدت ان هنالك عدة أجيال من حضارات خطيرة، بعضها مات واندثر منذ عدة ألوف من السنين ، والبعض الآخر لا يزال حيـــاً حتى الوقت الحاضر . ولكنني وجدتُ من فئة الحضارات التي اندثرت منذ مدة طويلة، بعض المجتمعات الاستثنائية المعينـة ، كاليهود والبارسي ، وأحد فروع البوذيين ، واحدى الطوائف المسيحية المجهولة ، ذوي الطبيعة الواحدة . ولست أدري اذا كنتَ قد سمعت عنها . على كل حال ، لقد كان هؤلاء الممثلين الباقين لحضارة قد غاب أصحابها عن مسرح التاريخ ، ليس بمعنى ان البشر قد انقرضوا ، ولكن بمعنى انهم امتصتهم الحضارات والأجناس الأخرى . وهكذا دواليك . ومنهم الـ ١٠ قبائل الاسرائيلية مثلاً . وهنالـك طوائف أخرى من هـــذا القبيل .

وكان ما أردت ان أبيّنه في كلمة « متحجر » هـو ان هذه المجتمعات الاستثنائية قد عاشت وبقيت من عصر سابق ، تماماً كما ان « المتحجرات سجـل باقٍ لأشكال الحياة التي وجدت في الأعصر الخاليات » . وانهم قد بقوا ، عن طريق عزل أنفسهم ، لعدة قرون . واظن ان هذا ينطبق على المجتمع اليهودي كما انه ينطبق عـــلى المجتمع البارسي وبعض ذلك الشتات المسيحي أيضاً . اذ أنهـــم بحصرهم أنفسهم في مؤسسة دينية صارمة جداً ، وعـلى

الأخص في مراعاتهم الدقيقة لكل صغيرة وكبيرة في الناموس الذي هو ليس شريعة دينية فحسب بل حياة اجتماعية وعادات عامة أيضاً .

هذان هما الاستثناءان اللذان وددت ان انقلهما في استعمال كلمة « متحجر » . والى الآن لم يتقدم أي من تلك الشعوب الأخرى بأية شكوى من دمغي لهم بهذه الكلمة . كنت أظن ان تمييزي هؤلاء الشعوب في أنهم يحوزون قوة بقاء عظيمة كهذه ، نوع من الثناء . والشكاوى الوحيدة التي وردتني قد صدرت عن اليهود . وقد شكا هؤلاء كما لو أني ألصقت بهم وحدهم هذه الدمغة ، ولم ألصقها بشعب آخر . ولست أعرف لماذا حدث عندهم هذا التخصيص . وأظن ان معيار « التحجر » ، بل كل معاييرنا « الدمغات » ناقصة في كثير أو قليل .

صحيح تماماً ، انها لا تنقل فكرة ان المجتمعات الباقية من حضارة سابقة لا تزال حية . وطبعاً ان البشر باقون ويقومون بأفعال كثيرة ، ولذلك فالسفير مصيب في هذا تماماً .

ولدي فصل ضاف عن كلمة « متحجر » هذه في مجلد سينشر فيما بعد . وفيه قدر كبير عن التاريخ اليهودي في الحقيقة . وسيصدر هذا المجلد بتاريخ ٤ أيار . وانني لآسف أن أقوم بالترويج والدعاية لعملي الخاص .

ولقد قلت : « هل نستطيع أخذ كلمة ما لمخلوق حي؟»

كنت أفكر الليلة الماضية في هذا الأمر ، فقلت : « في كل جنوب افريقية وجدوا سمكة واحدة قديمة العهد جداً يطلق عليها اسم كولاكانتس ، فهل استطيع الاستعاضة بهذه الكلمة عن كلمة « متحجر » ؟ هل سيكون في ذلك ما هو أدعى لرضا الناس ؟ » وقدّرت انه لن يكون ، كما ان الكولاكانتس شكل من أشكال الحياة المندثرة . والسفير مصيب تماماً في ان يهود الوقت الحاضر ليسوا بالين بأية حال . انهم مع مد الحياة الكامل .

ولكن أليس صحيحاً أنه ، منذ أيام الحروب الرومانية وفي الوقت الذي جرى فيه القتال على الاسكندرية ، أو في الوقت الذي تمت فيه كتابة أعمال المسيح على يدي الرسل ، وأنت ترى مركز الحركات اليهودية في العالم اليوناني أو الروماني ؟ لقد كانوا في ذلك الوقت ، كما هم اليوم ، جزءاً من العالم الغربي . لقد كانوا يعيشون وسط تيار الحضارة . أو كما يقول السفير ، في الحياة العامة لتلك الحضارة . وبتأثير هذه الحروب الرومانية ، بدا ان المجتمعات اليهودية انكمشت داخل نوع من القوقعة ، فهجروا الكتابة والنطق باللغة اليونانية ورجعوا الى اللغة العبرية ، وربما الآرامية . وقد ظلوا منغلقين على أنفسهم طوال قرون عدة ، بسبب عالمهم الخاص من جهة ، ونتيجة لسوء المعاملة التي عوملوا بها من المسيحيين عامة ، والمسيحيين الغربيين خاصة من جهة أخرى . وانه منذ عهد نابليون فقط يمكنك ان

تقول — ما عدا في بعض الاقطار المستنيرة منذ عهد طويل مثل هولندة التي بدأت تزاول ذلك في القرنين السادس عشر والسابع عشر — ان الأبواب فتحت امام اليهود ، فأعيدوا ثانية الى مجرى الحياة من جديد . وتقع المأساة في هذا كما أظن ، على كل من الجانبين : الجانب اليهودي والجانب المسيحي ، فقد كان هنالك بعض التحفظات والقيود التي تحبذ الحصول على مجتمع واحد . وبوسعي ان أفترض أن اليهود كانوا يشعرون بأن المسيحيين لم يتقبلوهم حقاً في مجتمعهم المسيحي تقبلاً كاملاً . هذا ، بينما يشعر المسيحيون بأن اليهود لم يتصهروا كلية في المجتمع المسيحي . ولكن ، من وجهة نسبية ، وبالمقارنة مع وضع ما قبل سنة ١٨٠٠ ، فان اليهود في العصور الحاضرة كانوا قد أصبحوا جزءاً من تيار الحياة العامة ولعبوا دوراً مهماً فيها .

هرتزوك :

هواء « متحجر » يا دكتور توينبي — نعم ، يمكنك ان تجعل من تشاء متحجراً كما تزيد تجمد البنزين في سيارة . حسناً ، ان هذا شيء لذيذ .

الدكتور توينبي :

لم أنكر هذا من قبل ، ولكنني لم أجد كلمة أخرى للتعبير عن ما أعني . انه تصنيف خاص للمجتمعات ، ومن زاوية علمية صارمة أو وجهة نظر سيكولوجية فقط . جد

لي اسماً آخر وانا مستعد أن أستعمله . هذا كل مـــا أقول . انه ينطبق على شعوب كثيرة بالاضافة الى اليهود .

هرتزوك :

حسناً ، هذا مـا أقوله فيما يختص بالشعوب . وفيما يختص بمـا قرأته في تصنيف المتحجرات : انني أعتقد ، ودون أية رغبـة مني في الاساءة الى البارسي في الهنـد ان الحضارة اليهودية ، بمعنى ثقافتها وتأثيرها ، ماشت الحضارة العالمية عـبر العصور بمعنى قدرتها على الخلق . وبالمنـاسبة يا سيدي ، انك سوف لا تؤاخذني اذا أشرت الى أنني لم ألاحظ في مؤلفاتك أي ذكر للنشاط اليهودي الخلاق منذ حوالى ٢٣٠٠ سنة فعلاً ، ومنذ رحابي يواكيم بزاكي فيما بعد . انك لم تذكر المؤسسات التعليمية في فلسطين وفي القدس وكذلك باقي الحركات الفكرية عند شعب حي لم تذكره . ومن ثم أغفلت تفاعل ذلك التأثير في العلاقات بين الأمم . وأخيراً ، انك انت نفسك تعترف بأن المسيحية والإسلام قد أخذا بعض الشيء من يفبوع اليهودية . ولهذا فانني أعتقد بأن المقارنة مع البارمي ... ولكنني لا أريد الاساءة الى البارسي ، ولست أعرف عنهم شيئاً كثيراً .

ان ما اريد أن أقوله هو ان هذه القدرة على الخلق ، والتي يسرني أن أسير معها منذ القديم حتى الوقت الحاضر تنفي عنا صفة التحجر . وانا سعيد باتفاقك معي اليوم بأن المتحجر ، قد نفض « تحجّره » . وليست المشكلة ايجاد كلمة

عوضاً عن « المتحجر » لأنها ظلت « متحجراً » حتى الوقت الحاضر ، بل هي ايجاد صفة جديدة للمخلوق الجديد الذي نفض تحجره عنه !

تويتبي :

تذكّرْ انني قلت « بتحفظات » ، وأخشى ان يكون هنالك تحفظات من جانب اليهود ومن جانب المسيحيين أيضاً ! وهذه مسألة خطيرة علينا ان نظل نأخذها بعين الاعتبار .

هرتزوك :

ولكن ما رأيك يا بروفيسور في النقاط التي أثرتها سابقاً ؟ هل تعتبر تلك التقديرات المتعلقة بالحيوية ، والتي ذكرتها أنا قبل قليل ، ذات علاقة بإعادة بعث اسرائيل ؟ هل هنالك علاقة بينها وبين نفض التحجر ؟ هل هي علامات ودلائل تشير لك من وجهة تاريخية فقط عن وجود حيوية كامنة ؟

تويتبي :

أظن ان المسيحيين الغربيين قد اخترعوا القومية التي أكرهها بقوة ، وان اليهود قد أصابتهم العدوى بهذا المرض من المسيحيين الغربيين . وهذا من سوء الحظ ..

هرتزوك :

لقد كان هذا مرضاً فينا منذ القديم .. القديم . وقد حاول عدة أطباء ان يشفونا منه عبر القرون . ومهما كان الأمر ، فاننا نرفض الشفاء . ولكن النقطة يا بروفيسور ،

ان ما أعنيه لا أتحدث عنه الآن ، انني أعلم انك تعارض الدولة الحديثة ، فأنت تريد دولة عالمية . وهنالك كثيرون في اسرائيل أيضاً يرون اننا يجب ان نسير قدماً نحو تعاون عالمي ، دون ان تفقد الدولة الواحدة استقلالها ، وهذه مسألة أخرى .

ان ما أعنيه يتعلق بالصفات التي أظهرها «شعب» اسرائيل . ولست اتحدث عن الدولة بالمعنى المتعارف عليه بل عن صفة بقاء الحيوية ، ووجود الديمقراطية والخلو من الضغينة ، وحب السلام ، والتعاون نحو هذا الانموذج الآخذ في التكون من الأمم الجديدة في العالم بعد ٢٠٠٠ سنة من النفي . أفلا تظن ان لكل هذا أهمية ما ، من وجهة تاريخية ؟

توينبي :

لم أنكر أبداً ان اليهود قد ظلوا دائماً أحياء نشيطين ولم أنكر أبداً انني قد انتقدت بعض أشكال الحيوية التي مارستها اسرائيل مع اني لم أنكر الحيوية نفسها . وهل تعترف — بخصوص تلك القضية الأخرى في المقارنة بين المجتمع اليهودي خلال العصور مع مثيلاته الأخريات — بأننا كلنا في هذه القاعة غربيون ، سواء اليهود منا أو المسيحيون ؟ وكل منا يحوز مركزية « الأنا » الغربية ؟

وعلى هذا ، وبسبب ان اليهود في أكثرهم من الغرب ، وبسبب ان المسيحية مشتقة من اليهودية ، نجد اليهود

يتوسعون في عقليتهم ؟ اذا ذهبت الى جنوب آسيا ، وشرقيها ، فان النشيط يتغير . وها هم البارسيون قد نفضوا عن أنفسهم صفة التحجر في نفس العصر كاليهود، وكنتيجة لصبغ الهند بالصبغة الحديثة ، وسيلعبون دوراً بارزاً في التاريخ ربما يدهشك حقاً ، لأن الهند (بلادهم) ، تلعب دوراً مهماً في الوقت الحاضر ، وهم بالنسبة الى الهنـــد كاليهود بالنسبة الى العالم الغربي .

هرتزوك :

لا اعتراض عندي يا سيدي على الاطلاق .

توينبي :

اذن لا تنزعج من مقارنتك بهم .

هرتزوك :

حسناً ، أود ان أقول ، انني كمؤرخ من الهواة ليَ مفهوم ذو منحى خاص . وأظن ان التحليل يمكن ان يكون حساساً جداً للغاية كما أنه عمل مركب شديد التعقيد . ولكن ، وكما بيّنتُ ، ان المؤرخـين يختلفون معك في هذا الرأي . وأود ان أختـتم الحديث حول هذه النقطة فأمل يا سيدي ، قبل ان تصدر حكماً آخر ، وقبل ان تصدر كتابك الجديد اذا أمكن ، ان تزور اسرائيل وترى عملية نقض التحجر هذه في نص الكتاب وترى تلك الحيوية العارمة ثم تقارنها مع المدى التاريخي . وبعد ذلك يسرني ان نسمع الاستنتاج الذي تتوصل اليه . وانا آمل ان يكون

في مقدورك زيارتنا . واني متأكد ان شعبنا سيكون مسروراً جداً لأن يريك البلاد ، ويجيبك على أية أسئلة توجهها . ولا اعتراض عندنا على الاطلاق في ان تزور الأقطـــار المجاورة فتطلع على الشرق الأوسط ويتكون لديك مفهوم واسع عن الوضع في المنطقة .

توينبي :

أشكرك طبعاً ، وأخبرك أنه ليس هنالك أخلاقية كافية اذا حدث ذلك .

هرتزوك :

أما بخصوص الاخلاقية فقد وافقت يا سيدي على أننا كالشعوب الاخرى ومع هذا فـانه يمكنك ان تطلع على ذلك أيضاً عندما تزور اسرائيل .

توينبي :

أشكرك كثيراً ايها السفير .

انتهى

هذا الكتاب

- فلسطين : جريمة ودفاع ...
- أما الجريمة فهي « ما فعلته اسرائيل من سرقة ونهب واغتصاب . »
- واما الدفاع ، فهذا الذي يثبت « أن اسرائيل بكاملها ما زالت من الوجهة الشرعية ملكاً لعرب فلسطين الذين نزحوا عنها » .
- لقد قال هذا كبير مؤرخي العالم اليوم ارنولد توينبي في مناظرته لسفير اسرائيل في كندا .
- هذه المناظرة هي التي جعلت الجمهورية العربية المتحدة تطلق سراح الجاسوس البريطاني « زارب » تحية منها للمؤرخ البريطاني توينبي واعترافاً بموقفه النزيه .